يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ
وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ
عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ
أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

*لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء و أنهم لا عذر لهم أخبر أنهم:-

س-(يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ)من غزاتكم(قُل)لهم

(لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ)نصدقكم فى اعتذاركم الكاذب.

(قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ)

و هو الصادق فى قيله فلم يبق للاعتذار فائدة لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر اللّه عنهم

و محال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر اللّه الذى هو أعلى مراتب الصدق.

(وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ)

فى الدنيا لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب و أما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

(ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ)الذى لا تخفى عليه خافية

(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)من خير و شر و يجازيكم بعدله أو بفضله من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

و أعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: -

1-إما أن يقبل قوله و عذره ظاهرا و باطنا و يعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب.

فهذه الحالة هي المذكورة هنا فى حق المنافقين أن عذرهم غير مقبول

و أنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة و أعمالهم السيئة

2–و إما أن يعاقبوا بالعقوبة و التعزير الفعلى على ذنبهم

3–و إما أن يعرض عنهم و لا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية 94

و هذه الحال الثالثة هى التى أمر اللّه بها فى حق المنافقين و لهذا قال:–

(سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ)لا توبخوهم و لا تجلدوهم أو تقتلوهم.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-ابن جرير:-عن كعب بن مالك يقول لما قدم رسول الله ﷺمن تبوك جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه و يحلفون له و كانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺعلانيتهم و بايعهم و استغفر لهم و وكل سرائرهم إلى الله وصدقته حديثى فقال كعب: والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله قال للذين كذبوا؟

حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد:{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} إلى قوله {فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}

(إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ)أى: إنهم قذر خبثاء ليسوا بأهل لأن يبالى بهم و ليس التوبيخ و العقوبة مفيدا فيهم

(وَ)تكفيهم (وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ)عقوبة

(بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)95

(يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ)

أى:و لهم أيضا هذا المقصد الآخر منكم غير مجرد الإعراض بل يحبون أن ترضوا عنهم كأنهم ما فعلوا شيئا.

(فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ)

أى:فلا ينبغى لكم–أيها المؤمنون–أن ترضوا عن من لم يرض اللّه عنه بل عليكم أن توافقوا ربكم فى رضاه وغضبه.

و تأمل كيف قال:–(فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ)

و لم يقل:–« فإن اللّه لا يرضى عنهم»ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح و أنهم مهما تابوا هم أو غيرهم فإن اللّه يتوب عليهم و يرضى عنهم.

*و أما ما داموا فاسقين فإن اللّه لا يرضى عليهم لوجود المانع من رضاه

(و هو خروجهم عن ما رضيه اللّه لهم من الإيمان و الطاعة إلى ما يغضبه من الشرك و النفاق و المعاصى)

*و حاصل ما ذكره اللّه أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر إذا اعتذروا للمؤمنين و زعموا أن لهم أعذارا فى تخلفهم فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم و ترضوا و تقبلوا عذرهم

فأما قبول العذر منهم و الرضا عنهم فلا حبا و لا كرامة لهم96

*و أما الإعراض عنهم فيعرض المؤمنون عنهم إعراضهم عن الأمور الردية و الرجس و فى هذه الآيات إثبات الكلام للّه تعالى فى قوله:–

(قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)و إثبات الأفعال الاختيارية للّه الواقعة بمشيئته تعالى و قدرته فى هذا

و فى قوله:(وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ)أخبر أنه سيراه بعد وقوعه

و فيها إثبات الرضا للّه عن المحسنين و الغضب و السخط على الفاسقين.

*وَ لَمَّا كَانَتِ الْغِلْظَةُ وَ الْجَفَاءُ فِي أَهْلِ الْبَوَادِي لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ مِنْهُمْ رَسُولًا وَ إِنَّمَا كَانَتِ الْبَعْثَةُ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يُوسُف:109]

*الترمذى3945 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺبَكْرَةً فَعَوَّضَهُ مِنْهَا سِتَّ بَكَرَاتٍ فَتَسَخَّطَهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺفَحَمِدَ اللَّهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:-
إِنَّ فُلاَنًا أَهْدَى إِلَيَّ نَاقَةً فَعَوَّضْتُهُ مِنْهَا سِتَّ بَكَرَاتٍ فَظَلَّ سَاخِطًا لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَ أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلاَّ مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ.

*الترمذى3946 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﷛ قَالَ:-أَهْدَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺنَاقَةً مِنْ إِبِلِهِ الَّتِي كَانُوا أَصَابُوا بِالغَابَةِ فَعَوَّضَهُ مِنْهَا بَعْضَ العِوَضِ فَتَسَخَّطَ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺعَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:-
إِنَّ رِجَالاً مِنَ العَرَبِ يُهْدِي أَحَدُهُمُ الهَدِيَّةَ فَأُعَوِّضُهُ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا عِنْدِي ثُمَّ يَتَسَخَّطُهُ فَيَظَلُّ يَتَسَخَّطُ فِيهِ عَلَيَّ وَ ايْمُ اللهِ لاَ أَقْبَلُ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ العَرَبِ هَدِيَّةً إِلاَّ مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ.

*قال بن كثير:لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمُدُنَ:-مَكَّةَ وَ الطَّائِفَ وَ الْمَدِينَةَ وَ الْيَمَنَ فَهُمْ أَلْطَفُ أَخْلَاقًا مِنَ الْأَعْرَابِ: لِمَا فِي طِبَاعِ الْأَعْرَابِ مِنَ الْجَفَاءِ.

*البخارى5998 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:-جَاءَ أَعْرَابِيٌّ(قيل هو الأقرع بن حابس﷛ و قيل غيره)إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ:-
تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-
«أَوَ أَمْلِكُ لَكَ(أى لا أقدر أن أجعل فى قلبك الرحمة إن كان الله تعالى قد نزعها منه)أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»

(ٱلْأَعْرَابُ)و هم سكان البادية و البرارى

(أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا)من الحاضرة الذين فيهم كفر و نفاق

و ذلك لأسباب كثيرة:–

منها:–أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية و الأعمال و الأحكام

فهم أحرى (وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ)من أصول الإيمان و أحكام الأوامر و النواهى

بخلاف الحاضرة:–فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله

فيحدث لهم–بسبب هذا العلم–تصورات حسنة و إرادات للخير الذى يعلمون ما لا يكون فى البادية.
و فيهم من لطافة الطبع و الانقياد للداعى ما ليس فى البادية و يجالسون أهل الإيمان و يخالطونهم أكثر من أهل البادية
فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية و إن كان في البادية و الحاضرة كفار و منافقون ففى البادية أشد و أغلظ مما فى الحاضرة.

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَلِّمَهُ الْإِيمَانَ وَ الْعِلْمَ

(حَكِيمٌ)فِيمَا قَسَّمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَ الْجَهْلِ وَ الْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ وَ النِّفَاقِ(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)الانبياء:23 لِعَلْمِهِ وَ حِكْمَتِهِ﴿٩٧﴾

و من ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال و أشح فيها.فمنهم:–

(وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ)من الزكاة و النفقة فى سبيل اللّه و غير ذلك

(مَغْرَمًا)يراها خسارة و نقصا لا يحتسب فيها و لا يريد بها وجه اللّه و لا يكاد يؤديها إلا كرها.

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ)

من عداوتهم للمؤمنين و بغضهم لهم أنهم يودون و ينتظرون فيهم دوائر الدهر و فجائع الزمان و هذا سينعكس عليهم

(عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ)و أما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم و لهم العقبى الحسنة

(وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)يعلم نيات العباد و ما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره﴿٩٨﴾

*أما القسم الممدوح من الأعراب:–

(وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ)و ليس الأعراب كلهم مذمومين

بل منهم(مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ)فيسلم بذلك من الكفر و النفاق و يعمل بمقتضى الإيمان.

(وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ)أى:–يحتسب نفقته و يقصد بها وجه اللّه تعالى و القرب منه

(و)يجعلها وسيلة لـ(وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ)أى:دعائه لهم و تبريكه عليهم قال تعالى مبينا لنفع صلوات الرسول:–

(أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ)تقربهم إلى اللّه و تنمى أموالهم و تحل فيها البركة.

(سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ)فى جملة عباده الصالحين

(إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه و يعم عباده برحمته التى وسعت كل شيء

و يخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات و يحميهم فيها من المخالفات و يجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

و في هذه الآية دليل على:-

1-أن الأعراب كأهل الحاضرة منهم الممدوح و منهم المذموم فلم يذمهم اللّه على مجرد تعربهم و باديتهم إنما ذمهم على ترك أوامر اللّه و أنهم في مظنة ذلك.

2-أن الكفر و النفاق يزيد و ينقص و يغلظ و يخف بحسب الأحوال.

3-فضيلة العلم و أن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه لأن اللّه ذم الأعراب و أخبر أنهم أشد كفرا و نفاقا و ذكر السبب الموجب لذلك و أنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله.

4-أن العلم النافع الذى هو أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل اللّه على رسوله من أصول الدين و فروعه كمعرفة حدود الإيمان و الإسلام و الإحسان و التقوى و الفلاح و الطاعة و البر و الصلة و الإحسان و الكفر و النفاق و الفسوق و العصيان و الزنا و الخمر و الربا و نحو ذلك.

فإن في معرفتها يتمكن من فعلها-إن كانت مأمور بها أو تركها إن كانت محظورة-و من الأمر بها أو النهى عنها.

5-أنه ينبغى للمؤمن أن يؤدى ما عليه من الحقوق منشرح الصدر مطمئن النفس و يحرص أن تكون مغنما و لا تكون مغرما(٩٩)

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ
وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠
وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ
سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا
وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ
وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥
وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦

(وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ)

السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة و بدروها إلى الإيمان و الهجرة و الجهاد و إقامة دين اللّه.

*هم الذين صلّوا إلى القبلتين و أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون من المبشرين بالجنة ثم أهل بدر ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية و أفضلهم أبو بكر على الإطلاق.

*قَالَ الشَّعْبِيُّ:-السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ.

وَ قَالَ عدد من أهل العلم: هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ

(مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ)(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

(و)من(وَٱلۡأَنصَارِ)(وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ) الحشر: ٩

(وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ)بالاعتقادات و الأقوال و الأعمال فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم و حصل لهم نهاية المدح و أفضل الكرامات من اللّه.

*فَيَا وَيْلُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهم أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سبَّ بَعْضَهُمْ وَ لَا سِيَّمَا سيدُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَ خَيْرُهُمْ وَ أَفْضَلُهُمْ أَعْنِي الصِّدِّيقَ الْأَكْبَرَ وَ الْخَلِيفَةَ الْأَعْظَمَ أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ رضي الله عنه فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْذُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يُعَادُونَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ و يُبغضونهم و يَسُبُّونهم عِياذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ وَ قُلُوبَهُمْ مَنْكُوسَةٌ

(رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ)و رضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة

(وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ)

الجارية التى تساق إلى سَقْيِ الجنان و الحدائق الزاهية الزاهرة و الرياض الناضرة.

(خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ)لا يبغون عنها حولا و لا يطلبون منها بدلا لأنهم مهما تمنوه أدركوه و مهما أرادوه و جدوه.

(ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ)الذى حصل لهم فيه:-

1-كل محبوب للنفوس 2-و لذة للأرواح 3-و نعيم للقلوب

4-و شهوة للأبدان 5-و اندفع عنهم كل محذور100

(وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ)أيضا منافقون

(مَرَدُواْ)تمرنوا(عَلَى ٱلنِّفَاقِ)و استمروا و ازدادوا فيه طغيانا وَ يُقَالُ:- تَمَرَّدَ فُلَانٌ عَلَى اللَّهِ أَيْ: عَتَا وَ تَجَبَّرَ.

(لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ)بأعيانهم فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم لما للّه فى ذلك من الحكمة الباهرة.

(نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ)بالقتل و السبى و الفضيحة فى الدنيا و بعذاب القبر بعد الموت

*يحتمل أن التثنية على بابها و أن عذابهم:-1-عذاب فى الدنيا 2-و عذاب فى الآخرة.

ففى الدنيا ما ينالهم من الهم و الحزن و الكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح و النصر

و فى الآخرة عذاب النار و بئس القرار.

*و يحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب و نضاعفه عليهم و نكرره.

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ)أى:-النار﴿١٠١﴾

(وَءَاخَرُونَ)ممن بالمدينة و من حولها بل و من سائر البلاد الإسلامية

(ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ)أقروا بها و ندموا عليها و سعوا فى التوبة منها و التطهر من أدرانها.

(خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا)

و لا يكون العمل صالحا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد و الإيمان المخرج عن الكفر و الشرك الذى هو شرط لكل عمل صالح فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة من التجرؤ على بعض المحرمات و التقصير فى بعض الواجبات مع الاعتراف بذلك و الرجاء بأن يغفر اللّه لهم

*وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ أخرَ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ اللَّهِ وَ غُفْرَانِهِ.

وَ هَذِهِ الْآيَةُ-وَ إِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ مُعَيَّنِينَ-إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كل المذنبين الخاطئين المخلصين الْمُتَلَوِّثِينَ.

*البخارى4674 -عن سَمُرَةَ بْنُ جُنْدَبٍ ﷺقَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلَنَا:-

أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَ لَبِنِ فِضَّةٍ فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ وَ شَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ قَالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ فَوَقَعُوا فِيهِ
ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ
قَا لَالِي:-هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَ هَذَاكَ مَنْزِلُكَ قَا لَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَ شَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ "

فهؤلاء(عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ)و توبته على عبده نوعان:-

الأول:- التوفيق للتوبة و الثاني:- قبولها بعد وقوعها منهم.

(عسى فى اللغة العربية للطمع فى قرب الشيء و حصوله فهى من أفعال المقاربة كقولك :عسى أن يأتى محمد

أما عسى من الله فهى للإيجاب و تحقق الوقوع كالآية

قال عمر بن على بن عادل فى اللباب :-

اتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب :لأنه لفظ يفيد الإطماع و من أطمع إنسانا فى شيء ثم حرمه كان عارا و الله أكرم من أن يطمع واحدا فى شيء ثم لا يعطيه)

(إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ)أى: وصفه المغفرة و الرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما بل لا بقاء للعالم العلوى و السفلى إلا بهما فلو يؤاخذ اللّه الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

*و من مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة إذا تابوا إليه و أنابوا و لو قبيل موتهم بأقل القليل فإنه يعفو عنهم و يتجاوز عن سيئاتهم فهذه الآية دلت على أن المخلط المعترف النادم الذي لم يتب توبة نصوحا أنه تحت الخوف و الرجاء و هو إلى السلامة أقرب.

*و أما المخلط الذي لم يعترف و يندم على ما مضى منه بل لا يزال مصرا على الذنوب فإنه يخاف عليه أشد الخوف﴿١٠٢﴾

قال تعالى لرسوله و من قام مقامه آمرا له بما يطهر المؤمنين و يتمم إيمانهم:-

(خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ)و هى الزكاة المفروضة(تُطَهِّرُهُمۡ)من الذنوب و الأخلاق الرذيلة.

(وَتُزَكِّيهِم)تنميهم

(بِهَا)و تزيد فى أخلاقهم الحسنة و أعمالهم الصالحة و تزيد فى ثوابهم الدنيوى و الأخروى و تنمى أموالهم.

(وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ)ادع لهم أى: للمؤمنين عموما و خصوصا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم.

*البخارى 1497 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: -
كَانَ النَّبِيُّ ﷺإِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ قَالَ:«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ»

فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»

(إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ)أى:- طمأنينة لقلوبهم و استبشار لهم

(وَٱللَّهُ سَمِيعٌ)لدعائك سمع إجابة و قبول.

(عَلِيمٌ)بأحوال العباد و نياتهم فيجازى كل عامل بعمله و على قدر نيته

فكان النبي ﷺيمتثل لأمر اللّه و يأمرهم بالصدقة و يبعث عماله لجبايتها فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له و برَّك.

ففى هذه الآية دلالة على:-

1-وجوب الزكاة فى جميع الأموال و هذا إذا كانت للتجارة ظاهرة فإنها أموال تنمى و يكتسب بها فمن العدل أن يواسى منها الفقراء بأداء ما أوجب اللّه فيها من الزكاة.

و ما عدا أموال التجارة فإن كان المال ينمى كـــــ:-

الحبوب و الثمار و الماشية المتخذة للنماء و الدر و النسل فإنها تجب فيها الزكاة و إلا لم تجب فيها لأنها إذا كانت للقنية لم تكن بمنزلة الأموال التى يتخذها الإنسان فى العادة مالا يتمول و يطلب منه المقاصد المالية و إنما صرف عن المالية بالقنية و نحوها.

2-أن العبد لا يمكنه أن يتطهر و يتزكى حتى يخرج زكاة ماله و أنه لا يكفرها شيء سوى أدائها لأن الزكاة و التطهير متوقف على إخراجها.

3-استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة و أن ذلك ينبغى أن يكون جهرا بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

و يؤخذ من المعنى أنه ينبغى إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين و الدعاء له و نحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة و سكون لقلبه.

و أنه ينبغى تنشيط من أنفق نفقة و عمل عملا صالحا بالدعاء له و الثناء و نحو ذلك﴿١٠٣﴾

أى: أما علموا سعة رحمة اللّه و عموم كرمه

و أنه(يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ)التائبين من أى ذنب كان بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر.

(وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ)منهم أى: يقبلها و يأخذها بيمينه فيربيها لأحدهم كما يربى الرجل فلوه حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

*البخارى1410 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ(بوزن أو بقيمة)تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ(حلال)وَ لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَ إِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ(الذى أنفقها)كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ(مهره وهو الصغير من الخيل)حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ(يصبح ثوابها كثواب من تصدق بمقدار الجبل من المال)»

(وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ)كثير التوبة على التائبين فمن تاب إليه تاب عليه و لو تكررت منه المعصية مرارا.

و لا يمل اللّه من التوبة على عباده حتى يملوا هم و يأبوا إلا النفار و الشرود عن بابه و موالاتهم عدوهم.

(ٱلرَّحِيمُ)الذى وسعت رحمته كل شيء و كتبها للذين يتقونو يؤتون الزكاة و يؤمنون بآياته و يتبعون رسوله ١٠٤

(وَقُلِ)لهؤلاء المنافقين:(ٱعۡمَلُواْ)ما ترون من الأعمال و استمروا على باطلكم فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

(فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ)أى: لا بد أن يتبين عملكم و يتضح

(وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ) من خير و شر

ففي هذا التهديد و الوعيد الشديد على من استمر على باطله و طغيانه و غيه و عصيانه.

و يحتمل أن المعنى:-أنكم مهما عملتم من خير أو شر فإن اللّه مطلع عليكم و سيطلع رسوله و عباده المؤمنين على أعمالكم و لو كانت باطنة.

*قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا وَعِيد يَعْنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوَامِرَهُ بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ ستعرَضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَ عَلَى الرَّسُولِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَ هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ:

{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحَاقَّة: 18] وَ قَالَ{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ} [الطَّارِق: 9] وَ قَالَ{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}[العَادِيَات: 10]

وَ قَدْ يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ١٠٥

(وَءَاخَرُونَ)من المخلفين

(مُرۡجَوۡنَ)مؤخرون (و منه قيل مرجئة لأنهم أخروا العمل.ليس من الرجاء)

(لِأَمۡرِ ٱللَّهِ)يحكم فيهم بما يريد

(إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ)ففى هذا التخويف الشديد للمتخلفين و الحث لهم على التوبة و الندم.

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)بأحوال العباد و نياتهم(حَكِيمٞ)يضع الأشياء مواضعها و ينزلها منازلها

فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم و يتوب عليهم غفر لهم و تاب عليهم و إن اقتضت حكمته أن يخذلهم و لا يوفقهم للتوبة فعل ذلك

*قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ و مجاهدُ و عِكْرِمة وَالضَّحَّاكُ وَ غَيْرُ وَاحِدٍ:-هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا أَىْ: عَنِ التَّوْبَةِ وَ هُمْ:- مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَ هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ قَعَدُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَ مَيْلًا إِلَى الدَّعَةِ وَ الْحِفْظِ وَ طِيبِ الثِّمَارِ وَ الظِّلَالِ لَا شَكًّا وَ نِفَاقًا فَكَانَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ رَبَطوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِى كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبابة وَ أَصْحَابُهُ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَ هُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْمَذْكُورُونَ فَنَزَلَتْ تَوْبَةُ أُولَئِكَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَ أَرْجَى هَؤُلَاءِ عَنِ التَّوْبَةِ حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الْآتِيَةُ وَ هِىَ قَوْلُهُ:-

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ}[التَّوْبَة: 117]

{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ}[التَّوْبَة: 118] ١٠٦

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ
لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ
خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ
مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾

كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء يريدون به المضارة و المشاقة بين المؤمنين و يعدونه لمن يرجونه من المحاربين للّه و رسوله يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه فبين تعالى خزيهم و أظهر سرهم فقال:-(وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا)مضارة للمؤمنين و لمسجدهم الذي يجتمعون فيه

(وَكُفۡرٗا)قصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان.

(وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)ليتشعبوا و يتفرقوا و يختلفوا

(وَإِرۡصَادٗا)إعدادا(لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ)

أى:إعانة للمحاربين للّه و رسوله الذين تقدم حرابهم و اشتدت عداوتهم و ذلك كأبي عامر الراهب الذى كان من أهل المدينة

فلما قدم النبى ﷺو هاجر إلى المدينة كفر به و كان متعبدا فى الجاهلية فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول اللّه ﷺ

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره فهلك اللعين في الطريق و كان على وعد و ممالأة هو و المنافقون.

فكان مما أعدوا له مسجد الضرار فنزل الوحى بذلك فبعث إليه النبى ﷺمن يهدمه و يحرقه فهدم و حرق و صار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد

(إِنۡ أَرَدۡنَآ)فى بنائنا إياه(إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ)أى: الإحسان إلى الضعيف و العاجز و الضرير.

(وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ)فشهادة اللّه عليهم أصدق من حلفهم107

(لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ)أى:لا تصل فى ذلك المسجد الذى بنى ضرارا أبدا.فاللّه يغنيك عنه و لست بمضطر إليه.

(لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ)

ظهر فيه الإسلام فى« قباء »و هو مسجد« قباء »أسس على إخلاص الدين للّه و إقامة ذكره و شعائر دينه

و كان قديما فى هذا عريقا فيه

*البخارى1191 عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ لاَ يُصَلّى مِنَ الضُّحَى إِلَّا فِي يَوْمَيْنِ:-
يَوْمَ يَقْدَمُ بِمَكَّةَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْدَمُهَا ضُحًى فَيَطُوفُ بِالْبَيْتِ ثُمَّ يُصَلّي رَكْعَتَيْنِ خَلْفَ المَقَام
وَ يَوْمَ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ سَبْتٍ فَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كَرِهَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ حَتَّى يُصَلّىَ فِيهِ
قَالَ: وَ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَانَ يَزُورُهُ رَاكِبًا وَ مَاشِيًا

*فهذا المسجد الفاضل(أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ)و تتعبد و تذكر اللّه تعالى فهو فاضل و أهله فضلاء

و لهذا مدحهم اللّه بقوله:–

(فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ)من الذنوب و يتطهروا من الأوساخ و النجاسات و الأحداث.

و من المعلوم أن من أحب شيئا لا بد أن يسعى له و يجتهد فيما يحب فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب و الأوساخ و الأحداث

و لهذا كانوا ممن سبق إسلامه و كانوا مقيمين للصلاة محافظين على الجهاد مع رسول اللّه ﷺ و إقامة شرائع الدين و ممن كانوا يتحرزون من مخالفة اللّه و رسوله.

و سألهم النبى ﷺبعد ما نزلت هذه الآية فى مدحهم عن طهارتهم فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء فحمدهم على صنيعهم.

*أحمد 23833 عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: -
لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺعَلَيْنَا يَعْنِي قُبَاءً قَالَ:-إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ خَيْرًا أَفَلَا تُخْبِرُونِي؟
قَالَ: يَعْنِي قَوْلَهُ:{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة: 108] قَالَ: فَقَالُوا:-
يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَجِدُهُ مَكْتُوبًا عَلَيْنَا فِي التَّوْرَاةِ: الِاسْتِنْجَاءُ بِالْمَاءِ
*مسلم (1398) عن أَبِي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ:-
مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺقَالَ: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: قَالَ أَبِي دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺفِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ فَقُلْتُ:-
يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ

ثُمَّ قَالَ: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا»(هذا نص بأنه المسجد الذي أسس على التقوى المذكور في القرآن وأما أخذه ﷺ الحصباء وضربه في الأرض فالمراد به المبالغة في الإيضاح لبيان أنه مسجد المدينة والحصباء الحصى الصغار)لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ قَالَ: فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ أَبَاكَ هَكَذَا يَذْكُرُهُ.

(وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ)الطهارة المعنوية كـ:– التنزه من الشرك و الأخلاق الرذيلة

و الطهارة الحسية كـ:–إزالة الأنجاس و رفع الأحداث.

*دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ الْمُؤَسَّسَةِ مِنْ أَوَّلِ بِنَائِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ مَعَ جَمَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَ الْعِبَادِ الْعَامِلِينَ الْمُحَافِظِينَ و عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ وَ التَّنَزُّهِ عَنْ مُلَابَسَةِ الْقَاذُورَاتِ.

*ابن ماجه 355 - عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة: 108] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ فَمَا طُهُورُكُمْ؟»

قَالُوا: نَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ وَ نَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وَ نَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ. قَالَ: «فَهُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمُوهُ» 108

*ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها و موافقتها لرضاه فقال:–

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ)على نية صالحة و إخلاص

(وَرِضْوَٰنٍ)بأن كان موافقا لأمره فجمع فى عمله بين الإخلاص و المتابعة

(خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا)أى: على طرف

(جُرُفٍ هَارٍ)أى: بال قد تداعى للانهدام–طرف حفيرة متثالة

(فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)لما فيه مصالح دينهم و دنياهم 109

(لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً)شكا و ريبا ماكثا(فِى قُلُوبِهِمْ)

*شَكًّا وَ نِفَاقًا بِسَبَبِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا أُشْرِبَ عَابِدُو الْعِجْلِ حُبَّهُ.

(إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ)بموتهم

بأن يندموا غاية الندم و يتوبوا إلى ربهم و يخافوه غاية الخوف فبذلك يعفو اللّه عنهم

و إلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم و نفاقا إلى نفاقهم.

*فكان هذا البناء الظالم سبباً فى:-تأصل النفاق و الكفر فى قلوبهم حتى يموتوا كافرين

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها خفيها و جليها و بما أسره العباد و أعلنوه.

(حَكِيمٌ)لا يفعل و لا يخلق و لا يأمر و لا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة و أمر به فللّه الحمد

و فى هذه الآيات فوائد عدة:–

1–أن اتخاذ المسجد الذى يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه أنه محرم و أنه يجب هدم مسجد الضرار

الذي اطلع على مقصود أصحابه.

2–أن العمل و إن كان فاضلا تغيره النية فينقلب منهيا عنه كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

3–أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين فإنها من المعاصى التى يتعين تركها و إزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين و ائتلافهم

يتعين اتباعها و الأمر بها والحث عليها لأن اللّه علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه كما يوجب ذلك الكفر و المحاربة للّه و رسوله.

4–النهى عن الصلاة فى أماكن المعصية و البعد عنها و عن قربها.

5–أن المعصية تؤثر فى البقاع كما أثرت معصية المنافقين فى مسجد الضرار و نهى عن القيام فيه

و كذلك الطاعة تؤثر فى الأماكن كما أثرت في مسجد « قباء »

حتى قال اللّه فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾

و لهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره حتى كان ﷺيزور قباء كل سبت يصلى فيه و حث على الصلاة فيه.

6–أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة فى الآية أربع قواعد مهمة و هى:–

كل عمل فيه مضارة لمسلم أو فيه معصية للّه فإن المعاصى من فروع الكفر أو فيه تفريق بين المؤمنين

أو فيه معاونة لمن عادى اللّه و رسوله فإنه محرم ممنوع منه وعكسه بعكسه.

7–أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها و يتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم و الحسرات.

8–أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى فمسجد النبى ﷺالذى أسسه بيده المباركة و عمل فيه و اختاره اللّه له من باب أولى و أحرى.

9–أن العمل المبنى على الإخلاص و المتابعة هو العمل المؤسس على التقوى الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

و العمل المبنى على سوء القصد و على البدع و الضلال هو العمل المؤسس على شفا جرف هار

فانهار به في نار جهنم و اللّه لا يهدى القوم الظالمين110

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ﴾يخبر تعالى خبرا صدقا و يعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة و معاوضة جسيمة و هو أنه

﴿ٱشۡتَرَىٰ ﴾بنفسه الكريمة﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ﴾فهى المثمن و السلعة المبيعة.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾و هذا هو المُثَّمَن الذى أعطى الله تعالى فيه الثمن و هو الجنة

*التى فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين من أنواع اللذات و الأفراح و المسرات و الحور الحسان و المنازل الأنيقات.

و صفة العقد و المبايعة:—بأن يبذلوا للّه نفوسهم و أموالهم فى جهاد أعدائه لإعلاء كلمته و إظهار دينه

فـ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾

فهذا العقد و المبايعة قد صدرت من اللّه مؤكدة بأنواع التأكيدات.

*البخارى3123 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:-قَالَ:
«تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِه
وَ تَصْدِيقُ كَلِمَاتِه(مصدقا بما وعد الله تعالى في كتابه من أجر على الجهاد)بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾

التى هى أشرف الكتب التى طرقت العالم و أعلاها و أكملها و جاء بها أكمل الرسل أولو العزم و كلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾فَإِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادِ

وَ هَذَا كَقَوْلِهِ{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا} [النِّسَاءِ: 87] {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا} [النِّسَاءِ: 122]

﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾لتفرحوا بذلك و ليبشر بعضكم بعضا و يحث بعضكم بعضا أيها المؤمنون القائمون

﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾بما وعدكم اللّه

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

الذى لا فوز أكبر منه و لا أجل لأنه يتضمن السعادة الأبدية و النعيم المقيم و الرضا من اللّه الذي هو أكبر من نعيم الجنات و إذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة

فانظر إلى المشترى من هـو؟و هو اللّه جل جلاله

و إلى العوض:—و هو أكبر الأعواض و أجلها جنات النعيم

و إلى الثمن المبذول فيها:—و هو النفس و المال الذى هو أحب الأشياء للإنسان.

و إلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع:—و هو أشرف الرسل

و بأى كتاب رُقِّم:—و هى كتب اللّه الكبار المنزلة على أفضل الخلق﴿١١١﴾

ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ
ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ
مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ
إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾
لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ
مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من اللّه بدخول الجنات و نيل الكرامات؟فقال:-

هم (ٱلتَّـٰٓئِبُونَ)أى:الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

(ٱلۡعَـٰبِدُونَ)أى:المتصفون بالعبودية للّه و الاستمرار على طاعته من أداء الواجبات و المستحبات فى كل وقت فبذلك يكون العبد من العابدين.

(ٱلۡحَـٰمِدُونَ)للّه فى السراء و الضراء و اليسر و العسر المعترفون بما للّه عليهم من النعم الظاهرة و الباطنة المثنون على اللّه بذكرها و بذكره فى آناء الليل و آناء النهار.

(ٱلسَّـٰٓئِحُونَ)فُسرت السياحة:-

1-بالصيام 2-فى طلب العلم 3-بسياحة القلب فى معرفة اللّه و محبته و الإنابة إليه على الدوام

و الصحيح أن المراد بالسياحة:-

السفر في القربات كالحج و العمرة و الجهاد و طلب العلم و صلة الأقارب ونحو ذلك.

*كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: -{سَآئِحَاتٍ} [التَّحْرِيم: 5] أَيْ: صَائِمَاتٍ

(ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ)أى: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع و السجود.

(ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ) و يدخل فيه جميع الواجبات و المستحبات.

(وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)و هي جميع ما نهى اللّه و رسوله عنه.

(وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ)بتعلمهم حدود ما أنزل اللّه على رسوله و ما يدخل فى الأوامر و النواهى و الأحكام و ما لا يدخل الملازمون لها فعلا و تركا.

*قال بن عباس :القائمون بطاعة الله أو لفرائض الله

(وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)لم يذكر ما يبشـرهم به:-

ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا و الدين و الآخرة فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

و أما مقدارها وصفتها فإنها:- بحسب حال المؤمنين و إيمانهم قوة و ضعفا و عملا بمقتضاه.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

***صحيح البخاري

1360 عن سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ:-

أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِأَبِي طَالِبٍ: يَا عَمِّ

قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ "

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ:-

يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَ يَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ

حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ:-

هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ

وَ أَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ:{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ}[التوبة: 113]

***صحيح مسلم

(976)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺقَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَ أَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي

وَ اسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»

***صحيح البخاري

3350 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَ عَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ(سواد الدخان)وَ غَبَرَةٌ (غبار و لا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه و لعل المراد هنا ما يغشى الوجه من شدة الكرب وما يعلوه من ظلمة الكفر)
فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَاتَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ
فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِى أَنْ لَا تُخْزِيَنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ
فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ(أي من رحمة الله تعالى)؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:-"إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ
ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟
فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ(ذكر الضبع الكثير الشعر أري أباه على غير هيئته و منظره ليسرع إلى التبرء منه)مُلْتَطِخٍ(متلوث بالدم و نحوه)
فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)يعنى:ما يليق و لا يحسن للنبى و للمؤمنين به

(أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ)أى: لمن كفر به و عبد معه غيره

(وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ)

فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد فلا يليق بالنبى و المؤمنين لأنهم إذا ماتوا على الشرك أو علم أنهم يموتون عليه فقد حقت عليهم كلمة العذاب و وجب عليهم الخلود فى النار و لم تنفع فيهم شفاعة الشافعين و لا استغفار المستغفرين﴿١١٣﴾

(وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ)

و أيضا فإن النبى و الذين آمنوا معه عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه و غضبه و يوالوا من والاه اللّه و يعادوا من عاداه اللّه و الاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك مناقض له و لئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه

فإنه(عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ) فى قوله(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)و ذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ)لإبراهيم

(أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ)أن أباه سيموت على الكفر و لم ينفع فيه الوعظ و التذكير

(تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ)موافقة لربه و تأدبا معه.

(إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ)أي: رجَّاع إلى اللّه في جميع الأمور كثير الذكر و الدعاء و الاستغفار و الإنابة إلى ربه.

(حَلِيمٞ)أى:ذو رحمة بالخلق و صفح عما يصدر منهم إليه من الزلات لا يستفزه جهل الجاهلين و لا يقابل الجاني عليه بجرمه

فأبوه قال له: (لَأَرْجُمَنَّكَ)و هو يقول له: (سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

فعليكم أن تقتدوا به وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء (إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ)

كما نبهكم اللّه عليها و على غيرها و لهذا قال:–

(وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ)

(حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ)به و ما يحتاجون إليه في أصول الدين و فروعه.

*فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين و الأول أولى.

*يعني أن اللّه تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية و أمرهم بسلوك الصراط المستقيم فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه و يبين لهم جميع ما يحتاجون إليه و تدعو إليه ضرورتهم فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم

ففي هذا دليل على:–

1–كمال رحمته 2–و أن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد فى أصول الدين و فروعه.

و يحتمل أن المراد بذلك

(إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)فلكمال علمه و عمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون و بين لكم ما به تنتفعون ﴿١١٥﴾

(إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ)

أي: هو المالك لذلك المدبر لعباده بالإحياء و الإماتة و أنواع التدابير الإلهية

فإذا كان لا يخل بتدبيره القدرى فكيف يخل بتدبيره الدينى المتعلق بإلهيته و يترك عباده سدى مهملين أو يدعهم ضالين جاهلين و هو أعظم توليه لعباده؟

فلهذا قال:(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ)أى: ولى يتولاكم بجلب المنافع لكم

(وَلَا نَصِيرٍ)يدفع عنكم المضار.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4418 عن كَعْب بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَ لَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِﷺيُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَ لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺلَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا كَانَ مِنْ خَبَرِي:-

أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَ لاَ أَيْسَرَ(أكثر قوة ويسارا أى غنى)حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ(مثنى راحلة وهى ما يصلح للركوب والحمل فى الأسفار من الإبل ويصلح للسفر) قَطُّ

حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا

حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ(ما يحتاجون إليه في السفر والحرب)

فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِى يُرِيدُ وَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ يُرِيدُ الدِّيوَانَ
قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ
وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ وَ تَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ
فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِى: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ
فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ
وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِى شَيْئًا فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ
فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَ لَمْ أَقْضِ شَيْئًا
فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِى فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ
فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِى أَنِّى لاَ أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ
النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ
فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ»
فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ:
بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِى أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِى هَمِّى وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ
وَ أَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَ اسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِى رَأْيٍ مِنْ أَهْلِى
فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّى البَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّى لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ
فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا وَ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ
فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ
وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلاَنِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ
وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ
ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي:-«مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ».
فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ
جَدَلًا وَ لَكِنِّى وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّى لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ
وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ لاَ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ
وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّى حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ».
فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِى فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا
وَ لَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِى حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِى ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ:-
هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِى أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ فَقُلْتُ:-
مَنْ هُمَا؟ قَالُوا:-مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِىُّ وَ هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِىُّ
فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي
وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ
وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِى الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِى أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَ قَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَ أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَ أَجْلَدَهُمْ
فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِى أَحَدٌ
وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺفَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِى:-
هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ثُمَّ أُصَلِّى قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ
فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّى حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ
مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّى وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ
فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِى أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟
فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ
فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَ تَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِى بِسُوقِ الْمَدِينَةِ
إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ
فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ:
أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ
فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاَءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا
حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِى فَقَالَ:-
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟
أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا وَ أَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ
فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ
قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ:- يَا رَسُولَ اللَّهِ:-
إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لاَ وَ لَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ».
قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ
وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا
فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺفِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟
فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ
فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ
ﷺعَنْ كَلاَمِنَا فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا
فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِى وَ ضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:-يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا
وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَ آذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا
وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ
أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِى سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ
وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَ انْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا
فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ:-لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ
قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ

فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَ هَنَّانِي وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ:- «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قَالَ: « لاَبَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّه»

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»

قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِى بِخَيْبَرَ فَقُلْتُ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِى أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ.

فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺإِلَى يَوْمِى هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِى اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ:{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ}[التوبة: 117]إِلَى قَوْلِهِ{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: 119]

فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ(زمان مضى)بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسى مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا -حِينَ أَنْزَلَ الوَحْىَ-شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى:{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ}[التوبة: 95] إِلَى قَوْلِهِ{فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[التوبة: 96]

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺحِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ:-

{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة118]وَ لَيْسَ الَّذِى ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ() (قط) أي. (أقوى ولا أيسر). (راحلتان) (أهبة غزوهم) وفي نسخة (عدوهم). (طابت الثمار والظلال) نضجت الثمار ولذ للنفوس أكلها وكثرت الظلال بتورق الأشجار ورغبت النفوس أن تتفيأ فيها. (فطفقت) أخذت وشرعت. (اشتد في الناس الجد) بلغوا غاية اجتهادهم في التجهيز للخروج. (جهازي) ما أحتاجه في سفري. (فصلوا) خرجوا من المدينة وفارقوها. (تفارط الغزو) فات وقته وتقدم. (مغموصا) محتقرا مطعونا في دينه أو متهما بنفاق. (حبسه براده والنظر في عطفيه) أي منعه من الخروج إعجابه بنفسه ولباسه وبراده مثنى برد وهو الكساء وعطفيه مثنى عطف وهو الجانب. (قافلا) راجعا من سفره إلى المدينة. (سخطه) غضبه وعدم رضاه عما حصل مني. (أظل قادما) دنا قدومه إلى المدينة. (زاح عني الباطل) زال عني التفكير في الكذب والتماس الأعذار الباطلة. (فأجمعت صدقه) عزمت على أن أصدقه. (المخلفون) الذين لم يذهبوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخلفوا عنه. (علانيتهم) ظاهرهم. (سرائرهم) جمع سريرة وهي ما يكتم في النفوس. (ابتعت ظهرك) اشتريت راحلتك. (جدلا) فصاحة وقوة حجة وكلام. (تجد) تغضب. (كافيك ذنبك) يكفيك من ذنبك. (أسوة) قدوة. (تغيروا لنا) اختلفت أخلاقهم معنا عما كانت عليه من قبل من الود والألفة. (تنكرت) تغيرت. (فاستكانا) ذلا وخضعا وأصابهما السكون. (أطوف) أدور. (فأسارقه النظر) أنظر إليه خلسة. (تسورت) صعدت على سور الدار. (حائط) بستان من نخيل. (ففاضت عيناي) انهال دمعهما. (نبطي) فلاح. (دفع إلي) أعطاني. (جفاك) أعرض عنك وقاطعك. (هوان) ذل وصغار. (مضيعة) حيث يضيع حقك. (نواسك) من المواساة وهي التسلية عن المصيبة. (البلاء) الاختبار. (فتيممت) قصدت. (فسجرته) أوقدته بها. (تعتزل امرأتك) لا تجامعها وهي عميرة بنت جبير الأنصارية رضي الله عنها. (ضائع) قاصر عن القيام بشؤون نفسه. (حركة إلى شيء) من جماع ومباشرة وغيرها. (الحال التي ذكر الله) في قوله تعالى {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم .} / التوبة 118 /. (أوفى) أشرف. (سلع) جبل معروف في المدينة. (فخررت) أسقطت نفسي على الأرض. (آذن) أعلم. (ركض) استحث من الركض وهو الضرب بالرجل على بطن الفرس لتسرع

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ)يخبر تعالى أنه من لطفه و إحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ محمدﷺ

(وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

فغفر لهم الزلات و وفر لهم الحسنات و رقَّاهم إلى أعلى الدرجات و ذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات

و لهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾

خرجوا معه لقتال الأعداء فى وقعة «تبوك» و كانت في حر شديد و ضيق من الزاد و الركوب و كثرة عدو مما يدعو إلى التخلف. فاستعانوا اللّه تعالى و قاموا بذلك

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾

أي: تنقلب قلوبهم و يميلوا إلى الدعة و السكون و لكن اللّه ثبتهم و أيدهم و قواهم.

و زَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرا

و إن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها إما قصر عن فعلها أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾قَبِلَ توبتهم

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾و من رأفته و رحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة و قبلها منهم و ثبتهم عليها﴿١١٧﴾

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ
وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم
مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ
وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ
وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ
مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ
لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

(و)كذلك لقد تاب الله(وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ)عن الخروج مع المسلمين فى تلك الغزوة و هم: « كعب بن مالك » و صاحباه و قصتهم مشهورة معروفة فى الصحاح و السنن.

(حَتَّىٰٓ إِذَا)حزنوا حزنا عظيماو (ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ)على سعتها و رحبها

(وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ)التى هى أحب إليهم من كل شيء فضاق عليهم الفضاء الواسع و المحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه و ذلك لا يكون إلا من أمر مزعج بلغ من الشدة و المشقة ما لا يمكن التعبير عنه و ذلك لأنهم قدموا رضا اللّه و رضا رسوله على كل شيء.

(وَظَنُّوٓاْ)تيقنوا و عرفوا بحالهم(أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ)أنه لا ينجى من الشدائد و يلجأ إليه إلا اللّه وحده لا شريك له فانقطع تعلقهم بالمخلوقين و تعلقوا باللّه ربهم و فروا منه إليه فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

(ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ)أذن فى توبتهم و وفقهم لها

(لِيَتُوبُوٓاْۚ)أى: لتقع منهم فيتوب اللّه عليهم

(إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ)أى:كثير التوبة و العفو و الغفران عن الزلات و العصيان

(ٱلرَّحِيمُ)و صفه الرحمة العظيمة التى لا تزال تنزل على العباد فى كل وقت و حين فى جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية و الدنيوية.

*البخارى6094 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى(يوصل)إِلَى البِرِّ(اسم جامع لكل خير أي العمل الصالح الخالص من كل ذم)وَ إِنَّ البِرَّ يَهْدِى إِلَى الجَنَّةِ وَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ(يعتاد الصدق في كل أمر)حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا(يصبح الصدق صفة ذاتية له فيدخل في زمرة الصديقين ويستحق ثوابهم)

وَ إِنَّ الكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الفُجُورِ(سم جامع لكل شر أى الميل إلى الفساد والانطلاق إلى المعاصى)

وَ إِنَّ الفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ وَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا(صيغة مبالغة من الكذب وهو من يصبح الكذب صفة ملازمة له)»

و فى هذه الآيات :-

1–دليل على أن توبة اللّه على العبد أجل الغايات و أعلى النهايات فإن اللّه جعلها نهاية خواص عباده و امتن عليهم بها حين عملوا الأعمال التى يحبها و يرضاها.

2–لطف الله بهم و تثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد و النوازل المزعجة.

3–أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل و مزية ليست لغيرها و كلما عظمت المشقة عظم الأجر.

4–أن توبة اللّه على عبده بحسب ندمه و أسفه الشديد و أن من لا يبالي بالذنب و لا يحرج إذا فعله فإن توبته مدخولة و إن زعم أنها مقبولة.

5–أن علامة الخير و زوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقا تاما و انقطع عن المخلوقين.

6–أن من لطف اللّه بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم فقال(خُلِّفُوا)إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم أو خلفوا عن من بُتّ فى قبول عذرهم أو فى رده و أنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير و لهذا لم يقل:– «تخلفوا»

7–أن اللّه تعالى من عليهم بالصدق118و لهذا أمر بالاقتداء بهم فقال:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)باللّه وبما أمر اللّه بالإيمان به قوموا بما يقتضيه الإيمان و هو القيام بتقوى اللّه تعالى باجتناب ما نهى اللّه عنه و البعد عنه.

(وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ)فى أقوالهم و أفعالهم و أحوالهم

الذين أقوالهم صدق و أعمالهم و أحوالهم لا تكون إلا:–

1–صدقا خلية من الكسل و الفتور 2–سالمة من المقاصد السيئة 3–مشتملة على الإخلاص و النية الصالحة فإن الصدق يهدى إلى البر و إن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: (هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ الآية﴿١١٩﴾

يقول تعالى–حاثا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين و الأنصار و من حولهم من الأعراب الذين أسلموا فحسن إسلامهم–:

(مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ)

أى:ما ينبغى لهم ذلك و لا يليق بأحوالهم.

(وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ)فى بقائها و راحتها و سكونه

(عَن نَّفۡسِهِۦ)الكريمة الزكية بل النبى ﷺأولى بالمؤمنين من أنفسهم فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺبنفسه و يقدمه عليها فعلامة تعظيم الرسول ﷺو محبته و الإيمان التام به أن لا يتخلفوا عنه

*ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال:-

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ)المجاهدين في سبيل اللّه

(لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ)تعب و مشقة(وَلَا مَخۡمَصَةٞ)مجاعة(فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)

(وَلَا يَطَـُٔونَ)ينزلون(مَوۡطِئٗا)منزلا(يَغِيظُ)يُرْهِبُ(ٱلۡكُفَّارَ)عدوهم

*من الخوض لديارهم و الاستيلاء على أوطانهم

(وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا)كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال

*مِنْهُ ظَفَرًا وَ غَلَبَةً عَلَيْهِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِى لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ وَ إِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِمْ أَعْمَالًا صَالِحَةً وَ ثَوَابًا جَزِيلًا

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الْكَهْفِ: 30] .

(إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ)لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)

الذين أحسنوا فى مبادرتهم إلى أمر الله و قيامهم بما عليهم من حقه و حق خلقه فهذه الأعمال آثار من عملهم120

ثم قال: (وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا)فى ذهابهم إلى عدوهم

*وَ قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ الْآيَةَ:-

مَا ازْدَادَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بُعْدًا إِلَّا ازْدَادُوا مِنَ اللَّهِ قُرْبًا.

(إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)

و من ذلك هذه الأعمال إذا أخلصوا فيها للّه و نصحوا فيها

*ففى هذه الآيات:-

1-أشد ترغيب و تشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل اللّه

2-و الاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات

3-و أن ذلك لهم رفعة درجات

4-و أن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير(١٢١)

يقول تعالى:-منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم-

(وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً)

جميعا لقتال عدوهم فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك و تفوت به كثير من المصالح الأخرى

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ)أى:من البلدان والقبائل و الأفخاذ

(طَآئِفَةٌ)تحصل بها الكفاية و المقصود لكان أولى.

*ثم نبه على أن فى إقامة المقيمين منهم و عدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم فقال:-

(لِّيَتَفَقَّهُواْ)أى:-القاعدون

(فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)أى لــــ:-

1-يتعلموا العلم الشرعى 2-و يعلموا معانيه 3-و يفقهوا أسراره 4-و ليعلموا غيرهم

5-و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

*ففى هذا فضيلة العلم و خصوصا الفقه في الدين و أنه أهم الأمور و أن من تعلم علما فعليه نشره و بثه فى العباد و نصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم من بركته و أجره الذى ينمى له.

*و أما اقتصار العالم على نفسه و عدم دعوته إلى سبيل اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة و ترك تعليم الجهال ما لا يعلمون فأى منفعة حصلت للمسلمين منه؟ و أى نتيجة نتجت من علمه؟

و غايته أن يموت فيموت علمه و ثمرته و هذا غاية الحرمان لمن آتاه اللّه علما و منحه فهما.

*و فى هذه الآية أيضا دليل و إرشاد و تنبيه لطيف لفائدة مهمة و هى:-

أن المسلمين ينبغى لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها و يوفر وقته عليها و يجتهد فيها و لا يلتفت إلى غيرها لتقوم مصالحهم و تتم منافعهم و لتكون وجهة جميعهم و نهاية ما يقصدون قصدا واحدا و هو قيام مصلحة دينهم و دنياهم و لو تفرقت الطرق و تعددت المشارب

فالأعمال متباينة و القصد واحد و هذه من الحكمة العامة النافعة فى جميع الأمور.

*هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ الرَّسُولِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ

فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ النَّفِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:-{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}[التَّوْبَة: 41]

وَ قَالَ:{مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ}[التَّوْبَة: 120]

قَالُوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وَ قَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا وَ شِرْذِمَةٍ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلُّهُمْ

لِيَتَفَقَّهَ الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ وَ يُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ
الْعَدُوِّ فَيَجْتَمِعُ لَهُمُ الْأَمْرَانِ فِي هَذَا:-
النَّفِيرُ الْمُعِينُ وَ بَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ إِمَّا:-
لِلتَّفَقُّهِ وَ إِمَّا لِلْجِهَادِ فَإِنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْأَحْيَاءِ ﴿١٢٢﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ
مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ
إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧
لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم
بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ
وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩

*أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ إِلَى حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ

وَ لِهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُمْ وَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَ الْمَدِينَةَ وَ الطَّائِفَ وَ الْيَمَنَ وَ الْيَمَامَةَ وَ هَجَرَ وَ خَيْبَرَ وَ حَضْرَمَوْتَ وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جزيرةِ العرب

وَ دَخَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَ أَوْلَى النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ لِكَوْنِهِمْ أَهْلَ الْكِتَابِ

فَبَلَغَ تَبُوكَ ثُمَّ رَجَعَ لِأَجْلِ جهْد النَّاسِ و جَدْب الْبِلَادِ وَ ضِيقِ الْحَالِ

وَ كَانَ ذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ مِنْ هِجْرَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ اشْتَغَلَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ بِحَجَّتِهِ حَجَّة الْوَدَاعِ. ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ ﷺ بَعْدَ الْحَجَّةِ بِأَحَدٍ وَ ثَمَانِينَ يَوْمًا فَاخْتَارَهُ اللَّهُ لِمَا عِنْدَهُ.

*وَ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَزِيرُهُ وَ صَدِيقُهُ وَ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَ قَدْ مَالَ الدِّينُ مَيْلَةً كَادَ أَنْ يَنْجَفِلَ فَثَبَّتَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فَوَطَّدَ الْقَوَاعِدَ وَ ثَبَّتَ الدَّعَائِمَ.

وَ رَدَّ شَارِدَ الدِّينِ وَ هُوَ رَاغِمٌ. وَ رَدَّ أَهْلَ الرِّدَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَ أَخَذَ الزَّكَاةَ مِمَّنْ مَنَعَهَا مِنَ الطَّغَامِ وَ بَيَّنَ الْحَقَّ لِمَنْ جَهِلَهُ وَ أَدَّى عَنِ الرَّسُولِ مَا حَمَلَهُ.

ثُمَّ شَرَعَ فِي تَجْهِيزِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الرُّومِ عَبَدَةِ الصُّلْبَانِ وَ إِلَى الْفُرْسِ عَبَدَةِ النِّيرَانِ فَفَتَحَ اللَّهُ بِبَرَكَةِ سِفَارَتِهِ الْبِلَادَ وَ أَرْغَمَ أَنْفُسَ كِسْرَى وَ قَيْصَرَ وَمَنْ أَطَاعَهُمَا مِنَ الْعِبَادِ.

وَ أَنْفَقَ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ الْإِلَهِ.

وَ كَانَ تَمَامُ الْأَمْرِ عَلَى يَدَي وَصِيِّهِ مِنْ بَعْدِهِ وَ وَلِيِّ عَهْدِهِ الْفَارُوقِ الْأَوَّابِ شَهِيدِ الْمِحْرَابِ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَأَرْغَمَ اللَّهُ بِهِ أُنُوفَ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ وَ قَمَعَ الطُّغَاةَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اسْتَوْلَى عَلَى الْمَمَالِكِ شَرْقًا وَ غَرْبًا.

وَ حُمِلَتْ إِلَيْهِ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بُعْدًا و قُربا.
فَفَرَّقَهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ وَ السَّبِيلِ الْمَرْضِيِّ.
ثُمَّ لَمَّا مَاتَ شَهِيدًا وَ قَدْ عَاشَ حَمِيدًا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ عَلَى خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي عَمْرٍو عُثْمَانَ بن عفان شهيد الدار فكسى الْإِسْلَامَ بِجَلَالِهِ رِيَاسَةَ حُلَّةٍ سَابِغَةً.
وَ أُمِدَّتْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ وَ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبِهَا
وَ عَلَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَ ظَهَرَ دِينُهُ.
وَ بَلَغَتِ الْأُمَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ غَايَةَ مَآرِبِهَا فَكُلَّمَا عَلَوا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ بَعْدِهِمْ
ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعُتَاةِ الْفُجَّارِ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:-{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ}

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)و هذا أيضا إرشاد آخر بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال

(ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ)أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار

(وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ)عليهم و الشدة فى القتال و الشجاعة و الثبات
فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ غَلِيظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الْمَائِدَة: 54]
وَ قَالَ تَعَالَى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الْفَتْح: 29]
وَ قَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}[التَّوْبَة: 73 وَ التَّحْرِيم: 9]

(وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ)

أى:و ليكن لديكم علم أن المعونة من اللّه تنزل بحسب التقوى فلازموا على تقوى اللّه يعنكم و ينصركم على عدوكم.

و هذا العموم فى قوله:-(قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ)
مخصوص بما إذا كانت المصلحة فى قتال غير الذين يلوننا و أنواع المصالح كثيرة جدا.
*يقول تعالى: مبينا حال المنافقين و حال المؤمنين عند نزول القرآن و تفاوت ما بين الفريقين فقال:-

(وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ)فيها الأمر و النهى و الخبر عن نفسه الكريمة و عن الأمور الغائبة و الحث على الجهاد.

(فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا)حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.
*وَ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَ يَنْقُصُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَ الْخَلَفِ مِنْ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ
قال تعالى- مبينا الحال الواقعة-:

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا)

بالعلم بها و فهمها و اعتقادها و العمل بها و الرغبة فى فعل الخير و الانكفاف عن فعل الشر.

(وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)يبشر بعضهم بعضا بما من اللّه عليهم من آياته و التوفيق لفهمها و العمل بها.

و هذا دال على:-

1-انشراح صدورهم لآيات اللّه 2-و طمأنينة قلوبهم 3-و سرعة انقيادهم لما تحثهم عليه(١٢٤)

(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)شك و نفاق

(فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا)مرضا(إِلَىٰ رِجْسِهِمْ)مرضهم و شكا إلى شكهم

من حيث إنهم كفروا بها و عاندوها و أعرضوا عنها فازداد لذلك مرضهم و ترامى بهم إلى الهلاك

(وَ) الطبع على قلوبهم حتى

(وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ)

و هذا عقوبة لهم لأنهم كفروا بآيات اللّه و عصوا رسوله فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه.

* كما قال{وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الإِسْرَاء: 82]

وَ قَالَ تَعَالَى:{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فُصِّلَتْ: 44]

وَ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَقَائِهِمْ أَنَّ مَا يَهْدِى الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَ دَمَارِهِمْ كَمَا أَنَّ سَيِّئَ الْمِزَاجِ لَوْ غُذِّىَ بِمَا غُذِّىَ بِهِ لا يزيده إلا خبالا و نقصا(١٢٥)

*قال تعالى-موبخا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر و النفاق:-

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ)

بما يصيبهم من البلايا و الأمراض و بما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

(ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ)عما هم عليه من الشر(وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)ما ينفعهم فيفعلونه و ما يضرهم فيتركونه.

فاللّه تعالى يبتليهم- كما هى سنته فى سائر الأمم-بالسراء و الضراء و بالأوامر و النواهي ليرجعوا إليه

و فى هذه الآيات دليل على:-

1-أن الإيمان يزيد و ينقص

2-و أنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه و يتعاهده فيجدده و ينميه ليكون دائما في صعود(١٢٦)

(وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ)أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها و يعملوا بمضمونها

(نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ)

جازمين على ترك العمل بها ينتظرون الفرصة فى الاختفاء عن أعين المؤمنين و يقولون:-

(هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ)متسللين و انقلبوا معرضين فجازاهم اللّه بعقوبة من جنس عملهم

فكما انصرفوا عن العمل(صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم)صدها عن الحق و خذلها كَقَوْلِهِ:-

{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}[الصف: 5]

(بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ)فقها ينفعهم فإنهم لو فقهوا لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها و انقادوا لأمرها.

و المقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد و غيره من شرائع الإيمان كما قال تعالى عنهم:—

{فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}محمد20 ﴿١٢٧﴾

(لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ)

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبى الأمى الذي من أنفسهم يعرفون حاله و يتمكنون من الأخذ عنه و لا يأنفون عن الانقياد له و هو ﷺفي غاية النصح لهم و السعى فى مصالحهم.

*يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَيْ:-

مِنْ جِنْسِهِمْ وَ عَلَى لُغَتِهِمْ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام:-{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ} [الْبَقَرَة: 129]

وَ قَالَ{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}[آلِ عِمْرَانَ: 164] وَ قَالَ{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}

أَيْ: مِنْكُمْ وَ بِلُغَتِكُمْ كَمَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّجَاشِيِّ وَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِرَسُولِ كِسْرَى:-

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِينَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَ صِفَتَهُ وَ مُدْخَلَهُ وَ مُخْرَجَهُ وَ صِدْقَهُ وَ أَمَانَتَهُ وَ ذَكَرَ الْحَدِيثَ.

(عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ)يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم و يعنتكم.

(حَرِيصٌ عَلَيۡكُم)فيحب لكم الخير و يسعى جهده فى إيصاله إليكم و يحرص على هدايتكم إلى الإيمان و يكره لكم الشر و يسعى جهده فى تنفيركم عنه.

(بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ)شديد الرأفة و الرحمة بهم أرحم بهم من والديهم.

و لهذا كان حقه مقدما على سائر حقوق الخلق و واجب على الأمة الإيمان به و تعظيمه و تعزيره و توقيره كَمَا قَالَ{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ215 فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ216 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}[الشُّعَرَاءِ] ﴿١٢٨﴾

(فَإِن)آمنوا فذلك حظهم و توفيقهم

و إن(تَوَلَّوۡاْ)عن الإيمان و العمل فامض على سبيلك و لا تزل فى دعوتك

(فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ)الله كافيَّ فى جميع ما أهمنى(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ)أى:لا معبود بحق سواه.

(عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ)اعتمدت و وثقت به فى جلب ما ينفع و دفع ما يضر كَمَا قَالَ:-

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا}[الْمُزَّمِّلِ: 9]

(وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ)الذى هو أعظم المخلوقات.

و إذا كان رب العرش العظيم الذى وسع المخلوقات كان ربا لما دونه من باب أولى و أحرى﴿١٢٩﴾

10- سورة يونس-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ
مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

(الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ)و هو هذا القرآن المشتمل على الحكمة و الأحكام الدالة آياته على الحقائق الإيمانية و الأوامر و النواهى الشرعية الذى على جميع الأمة تلقيه بالرضا و القبول و الانقياد.

و مع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا)فتعجبوا كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ:{أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [التَّغَابُنُ: 6]
وَ قَالَ هُودٌ وَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِمَا:{أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ} [الْأَعْرَافِ: 63: 69]
وَ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ قَالُوا:{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]

(أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ)عذاب الله و خوّفهم نقم الله و ذكرهم بآيات الله.

(وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)إيمانا صادقا

(أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ)أى: لهم جزاء موفور و ثواب مذخور

(عِندَ رَبِّهِمۡۗ)بما قدموه و أسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا حملهم على الكفر به

فـ(قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ)عنه:-

(إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ)أى:بيّن السحر لا يخفى بزعمهم على أحد هذا من سفههم و عناده‌م

فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه و يستغربو إنما يتعجب من جهالتهم و عدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذى بعثه الله من أنفسهم يعرفونه حق المعرفة فردوا دعوته و حرصوا على إبطال دينه و الله متم نوره و لو كره الكافرون.يقول تعالى مبينا لربوبيته و إلهيته و عظمته:-

(إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ)

مع أنه قادر على خلقها فى لحظة واحدة و لكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية و لأنه رفيق في أفعاله.

و من جملة حكمته فيها أنه خلقها بالحق و للحق ليعرف بأسمائه و صفاته و يفرد بالعبادة.

(ثُمَّ)بعد خلق السماوات و الأرض(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ)استواء يليق بعظمته.

(يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ)في العالم العلوى و السفلي من:-

1-الإماتة و الإحياء 2-و إنزال الأرزاق 3-و مداولة الأيام بين الناس 4-و كشف الضر عن المضرورين

5-و إجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه و صاعدة إليه و جميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه.

*يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ{لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ} [سَبَأٍ: 3]

وَ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ وَ لَا تُغَلِّطُهُ الْمَسَائِلُ وَ لَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ وَ لَا يُلْهِيهِ تَدْبِيرُ الْكَبِيرِ عَنِ الصَّغِيرِ فِي الْجِبَالِ وَ الْبِحَارِ وَ الْعِمْرَانِ وَ الْقِفَارِ{وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[هُودٍ: 6]{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الأَنْعَامِ: 59]

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ)

فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة و لو كان أفضل الخلق حتى يأذن الله و لا يأذن إلا لمن ارتضى و لا يرتضى إلا أهل الإخلاص و التوحيد له.

* كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} [الْبَقَرَةِ: 255]

وَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}[النَّجْمِ: 26]

وَ قَوْلُهُ:{وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سَبَأٍ: 23] .

(ذَٰلِكُمُ)الذى هذا شأنه

هو(ٱللَّهُ رَبُّكُمْ)الذى له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال و وصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

(فَٱعْبُدُوهُ)أى:أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ذو الجلال و الإكرام.

*أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ{أَفَلا تَذَكَّرُونَ}أَيْ: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ تَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ

وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزُّخْرُف: 87]

وَ قَوْلُهُ: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ86 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ}[الْمُؤْمِنُونَ]وَ كَذَا الْآيَةُ الَّتِى قَبْلَهَا

وَ الَّتِى بعدها(٣)

*فلما ذكر حكمه القدرى:–و هو التدبير العام

و حكمه الدينى:–و هو شرعه الذى مضمونه و مقصوده عبادته وحده لا شريك له

ذكر الحكم الجزائى:–و هو مجازاته على الأعمال بعد الموت فقال:–

(إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ)سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم.

و قد ذكر الدليل النقلي فقال:–(وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ)وعده صادق لا بد من إتمامه

(إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ)

فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته و الذى يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكر إعادته للخلق فهو فاقد العقل منكر لأحد المثلين مع إثبات ما هو أولى منه فهذا دليل عقلى واضح على المعاد.

*أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ {وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الرُّومِ: 27]

(لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)بجوارحهم من واجبات و مستحبات

(بِٱلۡقِسۡطِ)بِالْعَدْلِ وَ الْجَزَاءِ الْأَوْفَى

أى: بإيمانهم و أعمالهم جزاء قد بينه لعباده و أخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)بآيات الله و كذبوا رسل الله.

(لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ)ماء حار يشوى الوجوه و يقطع الأمعاء.

(وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ)من سائر أصناف العذاب

(بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ)بسبب كفرهم و ظلمهم و ما ظلمهم الله و لكن أنفسهم يظلمون.

*سَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعِقَابِ مِنْ:-{سَمُومٍ وَحَمِيمٍ42 وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} [الْوَاقِعَة]

{هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ57 وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}[ص]

{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ43 يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}[الرَّحْمَن] (٤)

*لما قرر ربوبيته و إلهيته ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك و على كماله فى أسمائه و صفاته من الشمس و القمر و السماوات و الأرض و جميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات

و أخبر أنها آيات (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) و (لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ).

فإن العلم يهدى إلى معرفة الدلالة فيها و كيفية استنباط الدليل على أقرب وجه و التقوى تحدث فى القلب الرغبة في الخير و الرهبة من الشر الناشئين عن الأدلة و البراهين و عن العلم و اليقين.

و حاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة دال على:-

1-كمال قدرة الله تعالى و علمه و حياته و قيوميته

2-و ما فيها من الأحكام و الإتقان و الإبداع و الحسن دال على كمال حكمة الله و حسن خلقه و سعة علمه.

3-و ما فيها من أنواع المنافع و المصالح-كجعل الشمس ضياء و القمر نورا يحصل بهما من النفع الضرورى و غيره ما يحصل-يدل ذلك على رحمة الله تعالى و اعتنائه بعباده و سعة بره و إحسانه

4-و ما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله و إرادته النافذة.

و ذلك دال على أنه وحده المعبود و المحبوب المحمود ذو الجلال و الإكرام و الأوصاف العظام الذى لا تنبغي الرغبة و الرهبة إلا إليه

و لا يصرف خالص الدعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله في جميع شئونها.

*و فى هذه الآيات الحث و الترغيب على:-

1-التفكر فى مخلوقات الله 2-و النظر فيها بعين الاعتبار

فإن بذلك تنفتح البصيرة و يزداد الإيمان و العقل و تقوى القريحة و فى إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به و إغلاق لزيادة الإيمان و جمود للذهن و القريحة (٥)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ:-

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ)وَ أَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جُرْمِ(الشَّمْسَ ضِيَاءً)

وَ شُعَاعَ(وَالْقَمَرَ نُورًا)

هَذَا فَنٌّ وَ هَذَا فَنٌّ آخَرُ فَفَاوَتَ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَشْتَبِهَا وَ جَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ وَ سُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)

(وَقَدَّرَهُ)الْقَمَرَ(مَنَازِلَ)فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا ثُمَّ يَتَزَايَدُ نُوره وَ جِرْمُهُ حَتَّى يَسْتَوْسِقَ وَ يَكْمُلَ إِبْدَارُهُ ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ فِي تَمَامِ شَهْرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ39 لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[يس]

وَ قَالَ:{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[الْأَنْعَامِ: 96] .

وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:{وَقَدَّرَهُ}أَيْ: الْقَمَرَ{مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}

فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ وَ بِسَيْرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَ الْأَعْوَامُ.

(مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ)لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ وَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ

كَمَا قَالَ{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}[ص: 27]

وَ قَالَ تَعَالَى:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ115 فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[الْمُؤْمِنُونَ116]

(إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

*تَعَاقُبُهُمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا وَ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الأَعْرَافِ: 54]

وَ قَالَ:{لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}[يس: 40] وَ قَالَ تَعَالَى:

{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[الأَنْعَامِ: 96] .

وَقَوْلُهُ: {وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}أَيْ: مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ:

{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يُوسُفَ: 105] وَ قَالَ

{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[يُونُسَ: 101] .

وَ قَالَ: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}[سَبَأٍ: 9]

وَ قَالَ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولِي الألْبَابِ} [آلِ عِمْرَانَ: 190]أَيْ: الْعُقُولِ

وَ قَالَ هَاهُنَا: {لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}أَيْ: عِقَابَ اللَّهِ و سخطه و عذابه ٦

خلق السموات والأرض: حقائق تثبت أن القرآن لا يناقض العلم الرابط

كثيرة هي الأسئلة التى يثيرها أولئك المشككون حول مصداقية القرآن فهم يتساءلون تارة: هل هنالك فعلاً (سماء) في ميزان العلم الحديث؟و تارة أخرى ينكرون وجود أي سماء و يعتبرون الحديث القرآنى عن السماء أنه خرافة لا أساس لها!...

ما هو الفرق بين الكون و السماء؟

لقد تأملت جيداً ما يكشفه العلماء من حقائق كونية يقينية و تأمّلتُ بالمقابل ما جاء في كتاب الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً فوجدتُ التطابق الكامل دون أن نحمّل النص القرآنى غير ما يحتمل من المعاني والتفاسير.

إن الكون المرئي كما يعرّفه العلماء يشمل كل ما نراه من أقرب ذرة وحتى أبعد مجرة.

و لكننا كبشر لا نستطيع أن نرى أكثر مما توفره لنا العدسات المكبرة والأجهزة الرقمية المتوافرة لدينا.

ولكن القرآن الكريم وفّر لنا الرؤيا الواسعة والتي لا يتطرق إليها النقص أو الخلل أو العيب.

إن القرآن الكريم دقيق في تعابيره فهو لم يطلق لفظ الكون دون تحديد بل هنالك لفظ (السماء) ولفظ (النجوم) ولفظ (البروج) ولفظ (الأرض) ... وغير ذلك من الألفاظ المحددة على عكس العلم الحديث الذى يطلق مصطلح "الكون" وهو مصطلح غير دقيق علمياً لأننا لا نعرف بالتحديد ما تعنيه هذه الكلمة هل تعني "كل شيء" إذا كان كذلك فهذا تعبير واسع وغير محدد.

وإذا كانت كلمة "الكون" تعنى المجرات والنجوم والكواكب أى كل شيء نراه فماذا عن الأشياء التي لا نراها؟

إن القرآن يحدد لنا كل مادة في هذا الكون فهناك نجوم و هناك أرض وشمس وقمر... و هناك سماء!
إن الذى يتأمل آيات الله تعالى يستنبط بسهولة أن السماء الدنيا تبدأ من الغلاف الجوي المحيط بنا وتمتد لآخر مجرة تم رصدها حتى الآن. وهذا يعني أن الكون الذي يتحدث العلماء عنه هو "السماء الدنيا + الأرض". إذاً السماء تحيط بالأرض من جميع جوانبها وتمتد إلى آخر مجرة يمكن رؤيتها. لأن الله تعالى زيّن السماء الدنيا (أي السماء الأولى) والأقرب إلينا زيّنها بالنجوم والمجرات.

تمتد السماء الدنيا من فوق رؤوسنا مروراً بالغلاف الجوي ثم إلى الفضاء حتى نصل إلى آخر نجم يمكن رؤيته. فهذه كلها سماء دنيا تحيط بها ست سموات أخرى على شكل طبقات بعضها فوق بعض. إذاً الكون الذي يسميه العلماءUniverse ما هو إلا السماء الدنيا والأرض أما بقية السموات السبع فهي أمر لم يكتشفه العلم ولكن أغلب الظن أن العلم يوماً ما سيكتشف هذه السموات والله أعلم.

في بحثٍ نُشر قبل مدة على موقع الفضاء الأمريكي تناول اكتشافاً جديداً لأحد علماء الغرب اكتشف أن الكون بعد الانفجار الكبير (بعد أن خلق هذا الكون) تشكل ما يشبه الغاز وهو سحابة ضخمة من الغاز وعندما تمدد الكون وتوسع أحدث ذبذبات صوتية هادئة ويقول مؤلف هذا البحث: إن الذبذبات التي أطلقها الكون في بداية ولادته تشبه صوت طفل رضيع مطيع لأهله هادئ متزن!

وهنا ربما نجد تفسيراً لمعنى قوله تعالى:

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[فصلت: 11]

ففي هذه الآية يحدثنا الله تبارك وتعالى عن قول السماء والأرض(قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

ربما تكون هذه الترددات الصوتية التي أصدرها الكون في بداية خلقه هى امتثال وطاعة لأمر الله لأن الله تبارك وتعالى يقول:(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإسراء: 44].

توجد أدلة دامغة اليوم على أن الأرض تشكلت من الدخان الكونى وقد كان الدخان ينتشر في كل مكان أثناء تشكل الأرض وبعد تشكلها لملايين السنين أي أنه فى اللحظة التى تشكلت فيها الأرض كان الدخان موجوداً وفي كتاب الله تبارك وتعالى إشارة رائعة إلى هذا الأمر عندما قال:(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[فصلت: 9-12]

طالما كان هذا النص الكريم مدخلاً للمشككين ليوهموا ضعفاء العقول والقلوب بأن القرآن متناقض! فكيف يؤكد القرآن أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم يأتي في هذا النص ليؤكد أن الأرض خلقت في يومين ثم تم إكمال خلقها في أربعة أيام ثم خلقت السماء في يومين فيصبح المجموع ثمانية (2 + 4 + 2 = 8)!! ويظن الملحد أنه انتصر لعقيدته الفاسدة وأخرج لنا تناقضاً علمياً في القرآن ويكفي أن نجد خطأً علمياً واحداً لنثبت أن القرآن محرف هكذا يقولون!

<u>ولكن لنتأمل بدقة هذا النص الكريم في ضوء الحقائق العلمية اليوم:</u>

<u>1- خلق الله تعالى الأرض في يومين</u> (خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ)

أى أن الأرض لم تكن موجودة فأوجدها الله في يومين ولكنها غير صالحة للحياة. فقدّر فيها أقواتها وخلق عليها الجبال وغير ذلك بشكل يجعلها صالحة للحياة وذلك فى أربعة أيام(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)

فيكون المجموع ستة أيام.

2-فى هذه الأيام الستة كانت السماء موجودة وممتلئة بالدخان والدليل على أنها موجودة قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾أى أن الاستواء كان بعد خلق السماء وبعد خلق الأرض أي أنه بعد ستة أيام تمَّ خلق السماء والأرض. إذاً لم يقل رب العالمين(ثم خلق السماء) بل قال ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ﴾

فالسماء إذاً مخلوقة و موجودة مع الأرض وهذا ما يقرره العلم الحديث.

3- ثم بعد ذلك جعل هذه السماء الواحدة سبع طبقات بعضها فوق بعض وهذه العملية لا علاقة لها بخلق السموات بل هى عملية منفصلة تمت بعد خلق السموات وسماها القرآن بعملية التسوية لأن الله قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾لم يقل (فخلقهنَّ) وهذا دليل على أن السماء موجودة أصلاً ومنذ البداية وخلقت مع الأرض ولكنها لم تأخذ شكلها النهائى لأنها كانت دخاناً وهذا ما يؤكده العلماء اليوم! إذاً أكَّد القرآن أن الأرض والسماء كانتا مخلوقتين ثم سوَّى الله السماء وجعلها سبع سموات ولذلك قال في آية أخرى:

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِفَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]

تأملوا معي كلمة (فَسَوَّاهُنَّ) لم يقل (فخلقهُنَّ) والخلق يختلف عن التسوية. وإنني أتساءل: ما هي المشكلة بالنسبة للذين يشككون في هذه الآيات ويقولون إن القرآن يحوي خطأً حسابياً واضحاً؟

يقول تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾

فيقولون: يومان لخلق الأرض + أربعة أيام لتهيئة الأرض + يومان لخلق السماء = 8 أيام وليس 6 أيام وهنا يخلطون بين خلق السماء وبين تسوية السماء والصواب والذي يُفهم من الآية بوضوح أن الله خلق الأرض وهيَّأها بشكل كامل في ستة أيام وخلال هذه الأيام الستة خلق السماء أيضاً لأن خلق السماء والأرض جاء متناسقاً لأن الأرض خُلقت من الدخان الكوني الذي كان يشكل مادة السماء في بداية الخلق وهذا ما يقوله العلماء اليوم.

إذاً الله تعالى يتحدث عن خلق السماء والأرض في ستة أيام ويتحدث عن تسوية السماء وفصلها إلى سبع سموات في يومين إذن أيام الخلق ستة واليومين الأخيرين لا علاقة لهما بخلق السماء. فلا يكون هناك أي تناقض في القرآن.

والدليل على صدق هذا التفسير أن القرآن لم يذكر أبداً أن خلق السماء استغرق يومين بل عملية تسوية السماء إلى سبع سموات هي التي استغرقت يومين وهذين اليومين لا علاقة لهما بالأيام الستة عندما قال:

﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[الفرقان: 59].

وهنا تأكيد على أن الاستواء يأتي بعد الخلق ولا علاقة له بعدد أيام الخلق.

إن خلق الأرض بدأ مع خلق الكون لأن مادة الأرض التى تشكلت منها موجودة في الرتق الابتدائي الذي فتقه الله وخلق منه السموات والأرض ولذلك من الطبيعى أن يكون عدد أيام خلق الأرض ستة وهذه الأيام الستة هي ذاتها عدد أيام خلق السماء.

أما بعد ذلك من أيام لتسوية السماء وتعددها إلى سبع طبقات فهذا موضوع آخر لا يمكن أن نجمع عدد أيام التسوية مع عدد أيام الخلق سيكون هناك خطأ حسابى وبالتالى فإن الذين يجمعون هذه الأيام مع بعضها إنما هم الذين يخطئون وليس القرآن!

ولنضرب مثلاً على ذلك: عندما أقوم ببناء بيت ويستغرق هذا البناء مني ستة أشهر ثم بعد ذلك أقوم بفرشه خلال شهرين فإن أحداً إذا سألني أقول له استغرق مني بناء هذا البيت ستة أشهر ولكن فترة الفرش وهي شهرين لا تدخل ضمن فترة البناء.

كذلك الله تعالى خلق السماء و الأرض فى ستة أيام ثم فصل هذه السموات سبعاً فى يومين فليس هناك تناقض في هذا الأمر.يقول تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) لماذا الرقم سبعة؟
لأن الله تبارك وتعالى صمم معظم الأشياء في الكون على هذا الرقم فكل ذرة من ذرات الكون تتألف من سبع طبقات.ولذلك فإن الله تبارك وتعالى عندما حدثنا عن السماوات السبع قال:(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) مع أننا لا نرى هذه السماوات السبع إلا أنه أودع دليلاً في كل ذرة من ذرات الكون من خلال طبقاتها السبع وإذا علمنا أيضاً أن الأرض كذلك هي سبع طبقات بعضها فوق بعض ندرك أن الله تبارك وتعالى يحدثنا عن حقائق يقينية وليس مجرد كلمات.
الصورة تظهر الذرة بطبقاتها السبع.حاول المشككون إثارة الشبهات حول هذه الآية
فقالوا: إن هذه الآية تدل على أن الأرض خُلقت قبل السماء فهل يمكن أن نصدق ذلك في ضوء العلم الحديث؟ إذاً القرآن يناقض العلم الحديث!إذاً هو كتاب من عند غير الله لأن الله لا يُخطئ!!
إن هؤلاء لم يقرأوا الآية جيداً لأن الله تعالى عندما قال:(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)
إن هذه الآية تدل على أن السماء كانت موجودة قبل أن يستوى إليها ولكنها كانت في معظمها دخاناً ثم يقول بعد ذلك:(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا)
إذاً الخطاب للسماء والأرض وبالتالي أثناء هذا الخطاب كانت الأرض موجودة وكانت السماء موجودة ولا يعني ذلك أن الأرض خُلقت قبل السماء و لكن هذا ما فهمه المفسرون حسب علوم عصرهم.
أما نحن اليوم فلسنا ملزمين أن نفهم الآية كما فهمها المفسر قبل ألف سنة مثلاً لأنه لو توافرت لديهم العلوم لفهموها كما نفهمها اليوم.
هذا هو الدخان الكونى الذي كان موجوداً أثناء خلق الأرض ومنه خلقت السماء!
إن الله تعالى قال عن السماء:(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ)وكلمة (فَقَضَاهُنَّ)لا تعنى(خلقهن)
بل هو قضاء الله تعالى فى هذه السموات أن يكون عددها سبع سموات
وهذا يدل على أن السماء موجودة منذ البداية ولكن فى مرحلة ما استوى الله إليها و أمرها أن تلتزم أوامره ثم فصل هذه السماء عن بعضها فتحولت من سماء واحدة إلى سبع سموات.
وفي ظل هذه الرؤية لا أدرى أين المشكلة و أين التناقض الذي يدعيه هؤلاء بين العلم والقرآن؟!
الكون المتكرر:-
بعض العلماء عندما درسوا الكون يشبهونه اليوم بالورقة أو الصفيحة المنحنية يقولون:-
إن الكون له كثافة محددة فى توزع المادة خلاله هذه الكثافة تجعله كوناً أشبه بورقة منحنية قليلاً يعنى مسطحة
وأن هذا الكون في نهاية حياته سوف ينطوى على نفسه كما تنطوى هذه الورقة وسوف ينغلق ويعود كما بدأ حتى إنهم يسمونها نظرية (الكون المتكرر)أى أنه يبدأ من نقطة واحدة
ثم يتوسع ويتمدد ثم يعود فينكمش على نفسه ويعود كما بدأ و نحن نعتقد بهذا الكلام لماذا؟
لأن الله سبحانه وتعالى يقول:-(يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)
وأصحاب هذه النظرية يستخدمون كلمة (Repeat) يعيد الكلمة القرآنية ذاتها يستخدمها علماء الغرب ليعبروا عنها عن نهاية الكون وإعادة الخلق لماذا؟
لأنهم وجدوا أن كل شيء فى الكون يتكرر فدورة الماء تتكرر بنظام مقدر من الله تبارك وتعالى

ودورة الحياة تتكرر هنالك دورة للصخور و دورة للتراب ودورة للأرض كاملة ودورة للمناخ على الأرض يتغير كل فترة محددة و لذلك قالوا لا بد أن يكون هناك دورة للكون

وهنا يتجلى قول الحق تبارك و تعالى:-﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

ما هو هدف هذه الحقائق الكونية و لماذا ذكرها الله فى كتابه؟

وإذا تابعنا هذه الآيات نلاحظ أن الله تبارك و تعالى يقول:-

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: 105] فسبحان الله الذى أحكم هذه الآيات كأن الله يريد سبحانه و تعالى أن يعطيك أيها الإنسان إشارة خفية أن الله خالق هذا الكون

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و أن الله الذى قال عن نفسه:﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

الذي خلق هذا الكون وخلق فيه الدخان مع العلم أن هذا الدخان لم يتم تحليله يقيناً ومعرفة أن الغبار ليس بغبار بل هو دخان إلا فى العام 2006 وحدثنا عن تلك المصابيح فى السماء وحدثنا عن زينة السماء وحدثنا عن كلام للسماء في بداية خلقها عندما كانت دخاناً وكل هذه الحقائق نراها اليوم حقائق واقعة أمامنا ويقينية وتتفق مع القرآن الكريم ولذلك فإنك أيها الإنسان عندما تدرك هذه الحقائق وتدرك أن الله هو من خلق الكون وأن الله هو من زينه وهو من أخضعه لإرادته حتى إن السماوات لا تعصي أمر الله (قالتا أتينا طائعين)عندها يجب أن تقتنع بأن هذا الكلام هو كلام الله تعالى.

وسؤالي لك أيها الملحد!هل تقتنع معى بكلام الله تبارك و تعالى؟

و هل تقتنع أن الله هو من حدثنا عن هذه الحقائق قبل أن يكتشفها العلم الحديث؟

وهل تقتنع أن الله تبارك وتعالى كما بدأ خلق الكون من نقطة واحدة سيعيد هذا الخلق وسيعيده إلى النقطة ذاتها كما قال:-﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

فإذا اقتنعت بذلك واقتنعت أن كل شيء لله فينبغى عليك أن تدرك أن هذا الكون بيد الله وأن الأرض بيد الله يعطيها من يشاء من عباده ولذلك قال فى الآية التالية بعد أن حدثنا عن نهاية الكون:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

و كما قال سيدنا موسى عليه السلام لقومه:-

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

كأن الله تبارك وتعالى يريد أن يطمئن كل من يؤمن به أن يثق بالله وبعظمة الله وبقدرة الله تعالى وأنه قادر على كل شيء.

فهذه الآيات ليس الهدف منها فقط أن تكون معجزة هذا هدف مهم أن تكون هذه الآيات معجزة لأولئك الذين ينكرون هذا القرآن لأولئك الذين يدّعون أن هذا القرآن كتاب أساطير و كتاب يحوى على كثير من الخرافات.

بل هناك هدف عظيم لنا نحن المؤمنين أن نستيقن بقدرة الله و أن الكون بيد الله فلا تحزن أيها المؤمن لأن الله قادر أن يرزقك ويحفظك ويحقق لك ما تريد ولكن بشرط أن تثق بالله وبقدرته على كل شيء.

وخلاصة القول:

1- القرآن لا يناقض العلم بل إن قوله تعالى﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾فيه إشارة واضحة إلى أن الدخان هو أصل خلق السموات والأرض وهذا ما يقوله علماء وكالة "ناسا" بالحرف الواحد.

2- كلمات القرآن أدق من المصطلحات العلمية فالعلماء ليس لديهم أي فكرة عن السماء ولكنهم يتحدثون اليوم عن مادة مجهولة تملأ الكون بنسبة 96 بالمئة أى أن معظم الكون لا نراه وقد نتمكن يوماً من رؤية هذه المادة المظلمة وقد تكون هي السماء التي حدثنا عنها القرآن وإذا صح هذا التأويل فيكون القرآن أول كتاب في التاريخ يتحدث عن المادة المظلمة.

3- ينبغى أن نعلم أن النص القرآنى مقدس وثابت وهو كلام الله خالق الكون ولكن التفاسير غير مقدسة إلا ما صحَّ عن النبي الأعظم ﷺ هذه التفاسير تتغير بتغير العلوم وتطور الزمن ولذلك فإن التفسير ليس حجة على القرآن ولو أخطأ أحد المفسرين في فهمه للآية فهذا الخطأ يعود للمفسر وليس للقرآن.

4- لو درسنا جميع آيات القرآن لا نجد أي آية تناقض الأخرى فأيام خلق السموات والأرض هي ستة ولا توجد ولا آية تقول إن الله خلق السموات والأرض في ثمانية أيام إنما هذه شبهة يستغلها الملحدون للطعن في كتاب الله تبارك وتعالى فينبغي علينا دائماً أن نثق بالله وبكتابه فهو خالق الكون وهو أعلم بما خلق.

ماذا نقول عندما نرى هذه الحقائق؟الحمد لله الذى قال فى كتابه: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)

هذه آية علمنا الله كيف نحمده عندما نرى آية تتجلى أمامنا في القرآن الكريم يقول تعالى يعلمنا ماذا نقول أمام هذه الحقائق و الآيات المبهرة:(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [النمل: 93].

الاعجاز فى (الشمس ضياءا و القمر نورا) الرابط

ضياء الشمس ونور القمر في الاكتشافات العلمية الحديثة:

توصل علماء الفلك الحديث إلى التفريق بين النجم والكوكب وذلك بعد اكتشاف المناظير وإجراء الدراسات الفوتومترية (الضوئية) والطيفية على النجوم والكواكب خلال القرون القليلة الماضية فالنجم ما هو إلا جسم سماوي متلألئ يشع الطاقة ذاتياً بينما الكوكب جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب وهي الأقمار.

ويبحث علم فيزياء الشمس وهو أحد فروع علم الفلك في دراسة وفهم بعض الأسرار التي تكتنف أقرب النجوم إلينا وهي الشمس هذا الجرم العملاق الذى خلقه الله تبارك وتعالى ليجعل الحياة على سطح الأرض ممكنة وملائمة.

وقد أهتم العلماء والدول بهذا النهج من الدراسة فهنالك المئات من المعاهد والمراكز العلمية لدراسة الشمس وهناك قرابة العشرين قمراً صناعياً تدور حول الشمس لفهم العديد من الأسرار التي حيرت العلماء حتى أيامنا هذه وجوف الشمس ساخن جداً إذ تصل درجة الحرارة فيه إلى ما يقارب الـ15 مليون درجة مطلقة وتقل درجات الحرارة باتجاه الخارج إذ تصبح درجة الحرارة على سطحها (طبقة الفوتوسفير) حوالي 5000 درجة مئوية تقريباً.

وكشف العلم الحديث أن النجوم تنتج الطاقة والضوء بكميات عالية نتيجة لاحتراق الهيدروجين وهو المكون الأساسي لها وتحوله إلى هليوم في باطن النجوم حيث الكثافة والضغط العالي والحرارة التي تصل إلى 15 مليون درجة كما يحدث في شمسنا وقد تزيد في نجوم أخرى حيث يؤدي هذا إلى حدوث تفاعل نووي واندماج أربع ذرات هيدروجين لإعطاء ذرة هليوم واحدة ويكون فرق الكتلة ما بين المواد الداخلة في التفاعل والناتجة من التفاعل يشع على هيئة طاقة كهرومغناطيسية كالأطوال الموجية القصيرة (أشعة جاما وأشعة إكس) والتي تختار طريقها إلى سطح النجم أو الشمس هذه الأشعة قصيرة الموجة تصاحبها أشعة مرئية عند وصولها لسطح الشمس وتشع منه في الضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق

البنفسجية وهذا يعنى أن الشمس تستمد طاقتها من باطنها ووقودها هو عبارة عن اندماج نووي طبيعي تحت ظروف عالية الضغط والكثافة والحرارة في باطنها.

فيتضح لنا مما ذكر سابقاً أن الشمس تعد مفاعلاً نووياً عملاقاً يسبح في الفضاء بسرعة كبيرة وله ضوء وطاقة وحرارة ذات أشكال شتى ومتغيرة في كمها وكيفها وهي ليست قرصاً مضيئاً ثابت الضياء بل هي سراج وهاج.

وجه الإعجاز:

فرق القرآن الكريم بين الشعاع القادم من الشمس والشعاع القادم من القمر فسمى ما يأتي من الشمس ضياءاً وما يأتي من القمر نوراً وفي آيات أخرى توصف الشمس مرة بأنها سراج ومرة بأنها سراج وهاج أما القمر فلم يوصف إلا بالإنارة وأنه منير وفي هذا تفريق واضح ينسجم ويتطابق تماماً مع ما كشف عنه العلم الحديث.

فالقرآن الكريم يقول: (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً)[الفرقان: 61] ولم يقل الله تعالى: (وجعل فيها سراجين)أن السراج يحتاج إلى وقود فإذا اتقد السراج انبعث منه الضياء.

والضياء ما كان ذاتياً أما النور فهو عرضي وقد كشف العلم أن الشمس تشع بنفسها إشعاعاً ذاتياً أما القمر فإنه لا يشع ولا يشتعل بل يعكس شعاع الشمس الذي يصل إليه.

ورأينا أن الوهج ما جمع بين النور والحرارة كما يقول العلماء من أهل اللغة والمفسرين وهذا لا ينطبق مع القمر بل ينطبق على الشمس والتي وصفت في آية أخرى بأنها سراج وهاج ومعنى ذلك أنها مضيئة ومتقدة عالية اللهب وهذا هو عين ما كشف عنه العلم الحديث وهو أن الشمس تنتج طاقة عالية جداً وأنها عبارة عن مفاعل نووي عملاق ينتج كميات هائلة من الطاقة التي تتوهج ويصل ضياؤها إلى أرضنا.

هذا التفريق الدقيق بين الضياء والنور قبل ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة مما يشهد للقرآن الكريم بالمعجزة العلمية

الاعجاز فى (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب) الرابط

عندما نراقب القمر على مدار الشهر نلاحظ أنه يتخذ فى كل يوم منزلة ومكاناً يختلف عن اليوم التالى ويتأخر شروق القمر كل يوم عن سابقه بمقدار 50 دقيقة.

وبداية الشهر القمرى هو أول منازل القمر وأثناء دوران القمر حول الأرض يتلقى القمر كمية من ضوء الشمس فيعكسها إلى الأرض ولكن بسبب منازله أو أماكنه التى يتخذها من الأرض فإننا لا نرى كل الضوء المنعكس عنه مستمراً طيلة الشهر.

إنما نرى في كل يوم كمية من الضوء المنعكس تتناسب مع عدد أيام الشهر.

وبالتالي فإن هذا النظام المحكم هو وسيلة لنا نحن البشر لمعرفة التاريخ والحساب ولذلك قال تعالى:

(هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [يونس: 5].

وجه الإعجاز:

وهكذا يتجلى الإعجاز في حديث القرآن عن هذه المنازل وأنها من نعم الله علينا لأنه لولا وجود منازل للقمر يظهر فيها هلالاً ثم بدراً ثم يعود هلالاً حتى يختفي وأن القمر يتخذ وضعيات فلكية تتغير حسب أيام الشهر لم يتمكن الناس من حساب التاريخ ولم يتمكنوا من معرفة أيام الشهر.

منازل القمر الرابط

إن الحقائق العلمية التي أقرها القرآن الكريم في آياته وتوصل العلم الحديث إلى معرفتها ـ تؤكد للبشرية أن الإسلام دين الحق ودين العلم وأن معجزته لم تكن معجزة مادية فحسب بل كانت معجزة عقلية تخاطب أصحاب العقول والفطرة السليمة لذا فإنه من الواجب على العلماء ـ كل في تخصصه ـ توظيف الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن و أثبتتها العلوم الحديثة في تصحيح صورة الإسلام
ويتضح أن الكثير من الحقائق العلمية الواردة فى القرآن الكريم يكشف عنها العلم يومًا بعد يوم وأن كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ تضمن من الحقائق ما يبهر العلماء والمفكرين في العالم على مر العصور وأنه حجة الله الباقية على الناس كافة
و فيما يلي سنقوم بتسليط الضوء على آيتين كونيتين من آيات الله؛ وهما الشمس والقمر ودورهما في تحديد أوقات بعض العبادات وأمور الدين حيث يحدد هذان الجرمان النيران مواقيت الصلاة والصيام والحج والزكاة والأعياد. وحيث إن الصيام من العبادات التي يهتم بها المسلمون في جميع أصقاع الأرض ولكل من الشمس والقمر دور أساس في تحديد مواقيته نحو دخول شهره أو طول يومه ـ فسيكون له النصيب الأكبر في الطرح. وتتضح أهميته بصورة أكبر عند اقتراب شهر رمضان المبارك ـ حيث يدور الحوار والنقاش حول اعتماد الرؤية البصرية المجردة للهلال في ثبوت دخول شهر رمضان وخروجه أو استخدام المناظير الفلكية والوسائل الحديثة لذات الغرض أو الاستعانة بالحسابات الفلكية أو الأخذ بها مجردة. وسنحاول في هذا المقال توضيح عظمة خالق الكون في تسخير هذين الجرمين العظيمين ودورهمـا في حياة الناس العامة ومواقيتهم التعبدية وخاصة تحديد شهر رمضان المبارك ومناقشة معايير رؤية الهلال لتحديد دخول الأشهر الحرم ودقة الحساب في ذلك من جهة وأهمية التقويم الهجري القمري الموحد من جهة أخـرى. وتتـأتى الأهميـة الكبرى في إنشاء مركز لرصد الأهـلة يُعنَى بدراسة القمر ومنازله بجوار الكعبة المشرفة.

الشمس والقمر دائبان:

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه العزيز

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ37 وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ38 وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ39لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) يس:

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمات يجد إعجازًا بالغًا من نواحي عدة؛ لعل منها ما يلي: الترتيب الدقيق في التوجه نزولاً من أسبار الكون حيث الظلام الدامس الذي يسيطر على جنباته والمحيط بالمجرة والمجموعة الشمسية وذلك هو الحال كما رصده رواد الفضاء وصوّرته الأقمار الصناعية ومن ثم الاتجاه نحو الشمس وهي مركز مجموعتنا الشمسية والتي تجري سابحة بسرعة هائلة نحو مستقرّها الذي قدره العزيز العليم. ثم التوجه نحو القمر وهو الجرم الصغير الذي يدور حول تابع للشمس (الأرض) كما تشرح الآيات كيفية تغير منازله الدالة على توالي الأيام حتى يعود هلالاً صغيراً بسبب تغير موقعه بالنسبة للشمس والأرض.

وقد استدل بعض العلماء من الآية التالية على أن القمر يجب أن يغرب بعد غروب الشمس مباشرة لتحديد أول الشهر ودخوله وأن هذا التغير الزماني ناتج عن ارتباطه بالمكان لكل من الجرمين اللذين يسبح كل منهما في فلكه بدقة عالية. ولو تصورنا هذه الأجرام الثلاثة وهي تسبح في مداراتها بأحجامها المتباينة وبسرعاتها العالية وأبعادها الكبيرة لَهالَنَا ذلك التصور.

السراج:

فالشمس لها حجم ضعف حجم الأرض مليون وثلاثمائة ألف مرة وضعف حجم القمر ثمانية ملايين مرة وتبعد الشمس 150 مليون كم عن الأرض إلا أن حجم القمر لقربه منا يرى وكأن له حجمًا مساويًا لحجم الشمس. وهذه الأجرام المتباينة في الحجم لها سرعات تصل إلى مئات الآلاف من الكيلومترات ومن مئات الأقمار الصناعية وسفن الفضاء التي تم إرسالها لدراسة الكون بشتى أجرامه ـ توجد العشرات منها لدراسة الشمس ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

(يوليسيس وسوهو يوكوه) وذلك للاستفادة مما سخره الخالق لبني البشر ومحاكاة ما في الكون ـ بالمعامل الأرضية ومن ثَم التعرّف عليها بشكل أكبر وأدق مما سبقت معرفته.

ومن المعلوم أن الشمس تجري (ومعها مجموعتها الشمسية) بسرعة تقدر بحوالي 220 كيلو مترًا في الثانية حول مركز مجرتنا (درب التبّانة) لتتم هذه الدورة في250 مليون سنة. وهي تدور حول نفسها دورة كاملة كل 27 يومًا. كما أنها نشطة بذاتها فهي تشع الطاقة كمفاعل نووي (الحرارة ـ والضوء) لجميع أنحاء المجموعة الشمسية بنشاط دائم منقطع النظير بدأ منذ قرابة 4,5 بليون عام. ولموقع الشمس ارتباط وثيق بتحديد مواقيت بعض أركان الإسلام كالصلاة والصيام والحج.

ويتضح دور الشمس في عبادة الصلاة عن طريق تحديد أوقاتها(إِنّ الصّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مّوْقُوتًا. وكوجبت الشمس وغاب الشفق وزوال الشمس. ويأتي دورها في الحج في تحديد مشاعره في كل من عرفة ومزدلفة ومنى. وفي الصيام حين ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وغروب الشمس في تحديد طول فترة الصيام اليومية وتحديد أول الشهر بغروبها قبل القمر.

النور:

كما أن القمر دائب الحركة حول نفسه؛ فهو يدور حول الأرض مرة كل 29.53 يومًا وذلك متوسط الشهر الاقتراني وهذا يعني أن القمر يتحرك في السماء بالنسبة للنجوم كل يوم بمقدار 13 درجة تقريبًا نحو الشرق أو نصف درجة كل ساعة وهذا مساو لقطره تقريبًا.

والقمر عبـارة عن جرم سماوي مظلم وما الضوء الذي نراه منه إلا انعكاس لضــــوء الشمس عن سطحه وللقمر نصف مضيء ونصف مظلم تقريبًا وتختلف أطواره التي نراها تبعًا لموقع النصف المضيء من القمر بالنسبة للأرض فإذا وقع القمر بين الأرض والشمس تمامًا فعندها ستضيء الشمس النصف المواجه لها في حين يكون النصف المواجه للأرض مظلمًا ولا نرى القمر في ذلك الوقت وهذا ما يسمى بالاقتران أو تولّد الهلال ثم بعد بضعة أيام يأتي التربيع الأول ثم البدر ثم التربيع الثاني وأخيرًا يعود مرة أخرى إلى طور المحاق

ولا يحدث الكسوف عند كل اقتران بسبب ميلان مدار القمر بمقدار خمس درجات تقريبًا عن مستوى مدار الأرض حول الشمس.

وبالتالي قد يقع القمر بين الأرض والشمس ولكن ليس بالضرورة على نفس مستوى مدار الأرض حول الشمس فقد يكون أعلى أو أدنى من ذلك المستوى. أما إذا وقع على نفس المستوى فعندها يحدث الكسوف وهذا يسمى اقترانًا مرئيًّا. ولا يعني تولد الهلال أنه بداية ظهور الهلال؛ بل تولّد الهلال هو وقوع القمر بين الأرض والشمس تمامًا وتكون نسبة إضاءة القمر وقتها بالنسبة للراصد 0% تقريبًا. وباستمرار دوران القمر حول الأرض فإنه سيبتعد قليلاً عن الشمس لتبدأ أشعة الشمس بالانعكاس عن سطحه لنراه على شكل هلال نحيل.

وحيث إن الهلال في صفحة السماء يقع بالقرب من قرص الشمس إذن علينا أن نتحراه بعد غروب الشمس قرب المنطقة التي غابت عندها إذ لا يمكن رؤية الهلال النحيل جدًّا أثناء وجود قرص الشمس فوق الأفق لأن وَهَجَ الشمس الشديد سيتغلب على ضوء القمر الخافت. كما هو الحال بالنسبة لرؤية النجوم والشمس في رابعة النهار.

التقويم القمري في الحضارة الإنسانية:

تُعَدُّ عملية قياس الزمن قديمة قدم الحضارة الإنسانية. ولا زلنا إلى اليوم نستخدم الشمس لهذا الغرض استخدامًا كبيرًا. ولم يكن استخدام الشمس أكثر من القمر في هذا الأمر إلا حديثًا والسبب في اختيار القمر في العهود القديمة للاستخدام كتقويم يرجع لقيمته الفلكية والعلمية أكثر من الشمس لأنه يعطي نظامًا سهلاً ودقيقًا لقياس الزمن. لذا فليس من المستغرب أن معظم الحضارات القديمة استخدمت التقاويم القمرية مثل:

)البابليين الإغريق اليهود المصريين ـ في منطقة الشرق الأوسط ـ والصينيين والهنود ـ في الشرق). وقد استخدم كل هؤلاء تقاويم قمرية خالصة وقد تم التحويل منها لتقويم قمري شمسي معتمد على دورة القمر الشهرية. لكن السنوات القمرية تم تعديلها دوريًّا بإضافة شهر إضافي للمحافظة على الفصول لتتفق مع أشهر معينة وهنا مَكمن الخطأ والذي لم يرتضيه الإسلام. ويستخدم المسلمون النظام القمري الخالص (مثل ما كان يستخدم سابقًا) المعتمد على عدد ثابت من الأشهر وهو اثنا عشر شهرًا كل سنة.

وكذلك فإن العالم الغربي والكنيسة المسيحية الذين يستخدمون السنة الشمسية لتقاويمهم ـ يستخدمون النظام القمري لأهم تواريخ الكنيسة وهو عيد الفصح!. وهكذا فإننا نلاحظ أن النظام القمري لا زال يستخدم حتى اليوم على مستوى العالم أجمع بشكل أو بآخر. لهذا فإن كل التواريخ الدينية المهمة لمختلف المجتمعات مثل الأعياد ويوم الفصح بداية السنة الصينية ويوم خيبر وغيرها ـ قد تتزحزح سنويًّا خلال الفصول.

وفى تاريخ التقاويم واجه التقويم القمري ـ باعتباره منتظم الوقت ـ مشكلة خطيرة وهو ما قرره جوليان قيصر ـ 46 قبل الميلاد وهو ما عرف أيضًا بتذبذب السنة ـ وذلك بتثبيت الفصول في التقويم القمري لتتفق مع التقويم الشمسي البحت وقد انتهج ذلك كل من اليهود وعرب الجاهلية. ومن المُجدي أن نتذكر أنه لم تكن هنالك مشكلة كبيرة مع التقويم القمري في حد ذاته لكنه سوء استخدام الكهنة سلطتهم في عملية الكبس جعل القيصر يقتنع باتخاذ هذا القرار. ولا يُعَدّ هذا أمرًا ذا أهمية للتقويم القمري حتى العهد الحديث ـ وبالأخص ما قبل وصول الحضارة الغربية إلى أمريكا ومناطق أخرى من العالم مثل استراليا وآسيا وأفريقيا. حيث تم الاستعمال التدريجي للتقويم الشمسي المسيحي مما جعله عالميًّا.

ولقد حظي التقويم القمرى بدعم عظيم عندما استخدمه المسلمون كنظام قمري بحت (732م)

و كان ذلك في أبسط صيغة الثابتة و المحتوية على 12 شهرًا قمريًّا.
وقبل هذا كان أهل مكة أثناء الاستخدام السيئ لعملية الكبس يغيّرون الأشهر الحُرُم (التي كانت الحروب فيها محرمة) لتناسب أهواءهم مثلما كانت الكنيسة الرومانية تفعل.
و قد أشار القرآن الكريم إلى هذا وقد أبطل موضوع الكبس فى الآيات التالية:
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة 189)
﴿إِنَّ عِدَّةَالشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (التوبة 36)

ومما جعل التقويم الإسلامى أكثر بساطة واستقلالية ـ استخدام الرؤية للهلال معيارًا واضحًا.
ومن الملاحظ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ جعل من حركة القمر الدؤوبة هذه حركةً ظاهرةً جليَّةً واضحةً لتحديد الأشهر الاثني عشر مما يجعل التقويم الهجري تقويمًا طبيعيًّا يمكن أن يشهده ويستنتجه بيسر وسهولة كل من الإنسان البسيط العامل والمتعلم والعالم والذكر والأنثى ـ كل على حد سواء لذا كانت الرؤية المجردة هي التوجيه المباشر والذي يمكن لكافة البشر القيام به. ثم تأتي بعد ذلك الرؤية بمساندة الأجهزة البصرية باللإضافة إلى الحسابات الفلكية الدقيقة.
ومن المعلوم أنه منذ بداية العصر الإسلامي تم تطوير التقويم الهجري القمري والذي مَرَّ بمراحل عديدة من التعديل حتى وقتنا الراهن وفيما يلي سنذكر مختلف المعايير لتحديد رؤية الهلال وموقعه في السماء وبالتالي ترجمة ذلك إلى معادلات لحساب التقاويم.

معايير رؤية الأهلة:

هنالك معايير عدة تحدد رؤية الهلال و ه ى:
(1)البابلى:-تكون رؤية الهلال ممكنة إذا زاد عمر الهلال لحظة غروب الشمس عن 24 ساعة وغروب الهلال بعد أكثر من 48 دقيقة من غروب الشمس وهذا معيار جِدُّ غير دقيق.
(2)البتانى:-تكون رؤية الهلال ممكنة إذا كان انخفاض الشمس لحظة غروب القمر بين 9 و10 درجات تحت الأفق أى ممكن رؤية الهلال ما بين الشفق المدني والبحري (الشمس أسفل الأفق من 6 إلى 12 درجة)
(3)محمد إلياس:-هذا المعيار يربط بين بُعد القمر عن الأفق وفرق الاتجاه الأفقي (البعد الزاوى) وهو يعطى إمكانية رؤية الهلال بالعين المجردة فقط وحدد أقل ارتفاع هو 5 درجات.
(4)معيار شيفر:الذي أدخل العوامل الجوية في عين الاعتبار بالإضافة إلى الأبعاد الفلكية.
(5)معيار مرصد جنوب أفريقيا الفلكى SAAO الذى يربط بين ارتفاع الهلال وفرق الاتجاه الأفقي (البعد الزاوى)
(6)معيار يالوب: وقد وضعه البريطاني يالوب (وهو مدير لمرصد جرينتش ورئيس لجنة الأزياح الفلكية التابعة للاتحاد الفلكى الدولى) حيث يربط معياره بين فرق الارتفاع الزاوي المركزي للشمس والقمر مع السُّمك السطحي للهلال حيث قسم إمكانية الرؤية إلى (أ) ممكنة بالمرقب أو المنظار فقط (ب) قد تحتاج إلى منظار أو مرقب (ج) ممكنة بالعين المجردة في حالة صفاء السماء كليًّا (د) ممكنة بسهولة بالعين المجردة
وبناء على أرصاد عبر مئات السنين لم تثبت رؤية هلال يقل عن المعايير التالية:-

معيار عمر الهلال: لم يُر هلال بالعين المجردة يقل عمره عن 15 ساعة و24 دقيقة وتمّ ذلك من قبل العالم يوليوس شميت عام 1871م.

أما بالمنظار فقد كان عمر أصغر هلال تمت رؤيته 12 ساعة و42 دقيقة وبالمرقب 12 ساعة و7 دقائق وتمت رؤيته من قبل الراصد ستام يوم 20 يناير 1996 عن طريق مرقب قطره 8 بوصات.

معيار المكث: لم يُر هلال بالعين المجردة يقل مكثه عن 22 دقيقة.

معيار البعد الزاوي: لم يُر هلال يقل بعده الزاوى عن 7 درجات.

إن دخول أشهر: (رمضان وشوال والحج) ـ تعتمد على وجود الهلال فى وقت ومكان معيَّنين ويجب توفر شروط ثلاثة وهي شروط بداية الشهر الهجري القمري:-

1ـ أن يكون الهلال كاملاً فوق الأفق من غروب الشمس.

2ـ أن يكون غروب القمر بعد غروب الشمس(لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ) في مكة المكرمة.

3ـ أن يولد الهلال ـ ويسمى الاقتران أو التقاء النيرين ـ وذلك بوقوع الشمس والقمر والأرض على خط واحد

دقة الحسابات الفلكية:-

لقد أصبح من المسلَّمات البدهية أن الحسابات الفلكية غاية في الدقة وما ذلك إلا لأنها تعتمد على الفلك الرياضي أو ديناميكا الفضاء في تحديد مواقع وحساب حركة الشمس والأرض والقمر والتى يسيِّرها العليم الخبير (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

ومن الأدلة على دقة الحسابات:

إطلاق الأقمار الصناعية وسفن الفضاء إلى الأجرام السماوية المختلفة وحساب موعد وصولها بدقة متناهية تصل إلى أجزاء من الثانية ولولا ثقة العلماء في دقة الحسابات الفلكية ـ لما تمت المخاطرة بحياة رواد الفضاء ومليارات الدولارات لإرسالهم إلى الفضاء الخارجي. ودليل آخر هو قيام الفلكيين برصد الاستتارات القمرية باستمرار والمقصود بها اختفاء أحد الأجرام خلف قرص القمر نتيجة دوران القمر حول الأرض.

ومن الأمثلة على ذلك:-

في يوم 22 مارس 1996 دلّت الحسابات الفلكية أن نجم الدبران سيختفى خلف قرص القمر في تمام الساعة 9 مساءً و35 دقيقة و41 ثانية وتمّ التجهيز للرصد بالاستماع إلى إذاعة إشارات بث الوقت من موسكو (يمكن التقاطها على موجات 2.5 5 10 15 20 ميجاهيرتز حيث يتم بث إشارة كل ثانية) وما إن وصلت الثانية 41 حتى اختفى نجم الدبران وراء القمر.

ودليل آخر هو دقة حساب حدوث الخسوف والكسوف والمتوفرة لعشرة آلاف من السنين؛

فمثلاً حدث كسوف للشمس 11/ 8/ 1999 حيث كان موعد الكسوف فى الساعة الـ1 ظهرًا و16 دقيقة و17 ثانية وينتهي في 4 عصرًا و1 دقيقة و21 ثانية وحدث الكسوف فى نفس الوقت تمامًا.

و فى رمضان المنصرم حدث خسوف للقمر في منتصف الشهر وتحديدًا فى 9 نوفمبر 2003 حيث بدأ الساعة 2:30 صباحًا وذروته 4:18 صباحًا ونهايته 6:03 صباحًا

كما شهدت بعض الدول كسوفًا كليًّا للشمس بتاريخ 23 نوفمبر وكذلك في 4 مايو 2004

التقويم الإسلامى الموحد:-

احتضنت مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتكنولوجيا ـ و لسنوات طويلة ـ تقويم أم القرى.

وقد قامت حكومة المملكة العربية السعودية باحتضان الدورة الثامنة لِلَجْنة التقويم الهجرى الموحّد فى الفترة من 18 إلى 20 رجب 1419هـ الموافق 7 إلى 9 نوفمبر 1998م بحضور علماء شريعة وفلك وتمّ الاتفاق على المعايير التالية لاعتبار دخول الشهر القمرى و ه ى:-

1-استخدام إحداثيات الكعبة المشرفة (مكة المكرمة ـ المملكة العربية السعودية) أساسًا لهذا التقويم.

2-أن يكون توقيت مكة المكرمة أساسًا هذا التقويم.

3-أن تكون لحظة غروب الشمس فى مكة المكرمة هي بداية اليوم الهجري القمرى

4-أن يغرب الهلال بعد غروب الشمس فى مكة المكرمة بعد ولادة الهلال فلكيًّا بالنسبة للكرة الأرضية شريطة أن تكون ولادة الهلال فلكيًّا قد تمت قبل غروب الشمس في مكة المكرمة

5-مقارنة موعد غروب الشمس فى مكة المكرمة مع موعد غروب القمر في مكة المكرمة

و عليه-:

أ)إذا كانت لحظة غروب الشمس فى مكة المكرمة بعد غروب القمر في مكة المكرمة فإن اليوم التالى هو من الشهر السابق ويكون اليوم الذى يليه هو أول أيام الشهر الهجرى

ب)إذا كانت لحظة غروب الشمس فى مكة المكرمة قبل غروب القمر ففى هذه الحالة فإن القمر يكون قد وُلِد شرعيًّا حيث يكون القمر فوق الأفق بعد غروب الشمس ويكون الهلال قد وُلِد فلكيًّا قبل غروب الشمس و بذلك يكون اليوم التالى هو أول أيام الشهر الهجرى الجديد وهكذا.

و قد قامت مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم و التكنولوجيا بترجمة هذه التوصيات إلى معادلات وأصدرت التقاويم الدقيقة اللازمة ويلاحظ أن هذه المعايير تتماشى مع كافة شهادة الشهود وتراعى القدرات الفسيولوجية للراصدين.

و خلاصة القول:-

أولاً: تتجلى عظمة الخالق ـ تبارك وتعالى ـ في خلقه موضحًا ذلك فى كتابه لذا فإن الاهتمام بالإعجاز العلمى في القرآن والسنة من قبل المتخصصين ـ ضرورة فى عصر أصبح الهجوم عليهما شديدًا والتشكيك فيهما يتخذ صورًا متعددة كما أن الحقائق العلمية التى لم تعرفها البشرية إلا في العصر الحديث و أشار إليها القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية ـ تعد دليلاً محسومًا وبرهانًا ساطعًا عند كل ذى عقل أن خالق هذه الحقائق هو الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ـ ﷺ

ثانيًا: إنه لمن المهم جدًّا الشروع فى إنشاء مركز لرصد الأهلّة يهتم بدراسة القمر ومنازله ـ على أن يكون بجوار الكعبة المشرفة لما له من أهمية علمية وقدسية فى قلوب أكثر من مليار ونصف من المسلمين فى جميع أنحاء كوكبنا (الأرض)

ثالثًا: الشروع فى توحيد التقويم الهجرى القمرى لجميع الدول الإسلامية لما له من أهمية قصوى فى حياة المسلمين وذلك باعتبار ولادة الهلال قبل غروب الشمس شريطة مغيبة بعد غروبها حسب توقيت مكة المكرمة

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾
دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ
فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ
أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ
كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ
وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾
ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا)أي: لا يطمعون بلقاء الله الذى هو أكبر ما طمع فيه الطامعون و أعلى ما أمله المؤملون بل أعرضوا عن ذلك و ربما كذبوا به

(وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)بدلا عن الآخرة.

(وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا)ركنوا إليها و جعلوها غاية مرامهم و نهاية قصدهم فسعوا لها و أكبوا على لذاتها و شهواتها بأى طريق حصلت حصلوها و من أى وجه لاحت ابتدروها

*قد صرفوا إرادتهم و نياتهم و أفكارهم و أعمالهم إليها.

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها و كأنها ليست دار ممر يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التى إليها يرحل الأولون و الآخرون و إلى نعيمها و لذاتها شمر الموفقون.

(وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ)فلا ينتفعون بالآيات القرآنية و لا بالآيات الأفقية و النفسية و الإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض و الغفلة عن المدلول المقصود 7

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين هذا وصفهم

(مَأۡوَىٰهُمُ)مقرهم و مسكنهم(ٱلنَّارُ)التى لا يرحلون عنها.

(بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)من الكفر و الشرك و أنواع المعاصى 8

*فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين فقال:-

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)

أي: جمعوا بين الإيمان و القيام بموجبه و مقتضاه من الأعمال الصالحة المشتملة على أعمال القلوب و أعمال الجوارح على وجه الإخلاص و المتابعة

(يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ)بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب و هو الهداية فـ:-

1-يعلمهم ما ينفعهم

2-و يمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية

3-و يهديهم للنظر في آياته

4-و يهديهم فى هذه الدار إلى الصراط المستقيم و في الصراط المستقيم

5-و فى دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم. و لهذا قال:-

(تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ)الجارية على الدوام

(فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)أضافها الله إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التام:-

1-نعيم القلب بالفرح و السرور و البهجة و الحبور

2-و رؤية الرحمن و سماع كلامه و الاغتباط برضاه و قربه

3-و لقاء الأحبة و الإخوان و التمتع بالاجتماع بهم

4-و سماع الأصوات المطربات و النغمات المشجيات و المناظر المفرحات.

5-و نعيم البدن بأنواع المآكل و المشارب و المناكح و نحو ذلك مما لا تعلمه النفوس و لا خطر ببال أحد أو قدر أن يصفه الواصفون ٩

(دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ)عبادتهم فيها لله أولها تسبيح لله و تنزيه له عن النقائض و آخرها تحميد لله فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء و إنما بقى لهم أكمل اللذات الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة ألا و هو:-ذكر الله الذى تطمئن به القلوب و تفرح به الأرواح و هو لهم بمنزلة النَّفَس من دون كلفة و مشقة.

(و)أما (وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا)فيما بينهم عند التلاقى و التزاور فهو السلام أى: كلام سالم من اللغو و الإثم موصوف بأنه

(سَلَٰمٞۚ)و قد قيل في تفسير قوله (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ) إلى آخر الآية:-

أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام و الشراب و نحوهما-قالوا سبحانك اللهم فأحضر لهم في الحال.

(وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ)فإذا فرغوا قالوا:(أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)

*وَ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا شَبَهٌ مِنْ قَوْلِهِ:{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الْأَحْزَابِ: 44]

وَ قَوْلِهِ: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا25 إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[الْوَاقِعَةِ] .

وَ قَوْلِهِ: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[يس: 58]

وَ قَوْلِهِ: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ23سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[الرَّعْدِ]

*هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُودُ أَبَدًا الْمَعْبُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى وَ لِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَ اسْتِمْرَارِهِ وَ فِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ وَ عِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [الْكَهْفِ: 1] {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الْأَنْعَامِ: 1]

*و أنه الْمَحْمُودُ فِي الْأَوَّلِ وَ فِي الْآخِرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ وَ لِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:-

*مسلم (2835) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَ يَشْرَبُونَ وَ لَا يَتْفُلُونَ(يبصقون)وَ لَا يَبُولُونَ وَ لَا يَتَغَوَّطُونَ وَ لَا يَمْتَخِطُونَ»

قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟قَالَ: «جُشَاءٌ وَ رَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَ التَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»

مذهب أهل السنة وعامة المسلمين أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون يتنعمون بذلك وبغيره من ملاذها وأنواع نعيمها تنعما دائما لا آخر له ولا انقطاع أبدا وأن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا إلا ما بينهما من التفاضل في اللذة والنفاسة التي لا تشارك نعيم الدنيا إلا في التسمية وأصل الهيئة وإلا في أنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يبصقون وقد دلت دلائل القرآن والسنة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبدا ﴿١٠﴾

(وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ)

و هذا من لطفه و إحسانه بعباده أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه و بادرهم بالعقوبة على ذلك كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه

(لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ)لمحقتهم العقوبة و لكنه تعالى يمهلهم و لا يهملهم و يعفو عن كثير من حقوقه فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

و يدخل في هذا:-

*أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا و لأضره ذلك غاية الضرر و لكنه تعالى حليم حكيم.

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ:-

أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ فِي حَالِ ضَجَرِهِمْ وَ غَضَبِهِمْ وَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَصْدِ إِلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ-وَ الْحَالَةُ هَذِهِ-لُطْفًا وَ رَحْمَةً كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ وَ أَوْلَادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَ الْبَرَكَةِ وَ النَّمَاءِ وَ لِهَذَا قَالَ:

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} أَيْ: لَوِ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ وَ لَكِنْ لَا يَنْبَغِي الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:-

*مسلم(3009)سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاطٍ(جبل من جبال جهينة)وَ هُوَ يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو الْجُهَنِيَّ وَ كَانَ النَّاضِحُ(هو البعير الذى يستقى عليه)يَعْتَقِبُهُ(هكذا هو فى رواية أكثرهم يعقبه وفي بعضها يعتقبه وكلاهما صحيح يقال عقبه واعتقبه واعتقبنا كله من هذا) مِنَّا الْخَمْسَةُ وَ السِّتَّةُ وَ السَّبْعَةُ فَدَارَتْ عُقْبَةُ رَجُلٍ(العقبة ركوب هذا نوبة وهذا نوبة قال صاحب العين هي ركوب مقدار فرسخين)

مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاضِحٍ لَهُ فَأَنَاخَهُ فَرَكِبَهُ ثُمَّ بَعَثَهُ فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضَ التَّلَدُّنِ(أى تلكأ وتوقف)فَقَالَ لَهُ:-
شَأْ لَعَنَكَ اللهُ(كلمة زجر للبعير يقال شأشأت بالبعير بالمعجمة والمهملة إذا زجرته وقلت له شأ)فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرَهُ؟»قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:-«انْزِلْ عَنْهُ فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ
لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَ لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَ لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»

*وَ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-{وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً} [الإِسْرَاءِ: 11]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:-{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ}
هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ لِوَلَدِهِ وَ مَالِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ:-"اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِيهِ وَ الْعَنْهُ"
فَلَوْ يعجل لهم الاستجابة فِي ذَلِكَ كَمَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ لَأَهْلَكَهُمْ.

(فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا)لا يؤمنون بالآخرة فلذلك لا يستعدون لها و لا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله

(فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ)باطلهم الذى جاوزوا به الحق و الحد.

(يَعۡمَهُونَ)يترددون حائرين لا يهتدون السبيل و لا يوفقون لأقوم دليل و ذلك عقوبة لهم على ظلمهم و كفرهم بآيات الله(١١)

(وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا)

و هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو و أنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء و سأل الله في جميع أحواله قائما و قاعدا و مضطجعا و ألح فى الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

* كَقَوْلِهِ:{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فُصِّلَتْ: 51]

(فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ)

أي: استمر في غفلته معرضا عن ربه كأنه ما جاءه ضره فكشفه الله عنه فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟!!

يطلب من الله قضاء غرضه فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه و كأنه ليس عليه لله حق.

و هذا تزيين من الشيطان زين له ما كان مستهجنا مستقبحا في العقول و الفطر.

(كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ)المتجاوزين للحد

(مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الْهِدَايَةَ وَ السَّدَادَ وَ التَّوْفِيقَ وَ الرَّشَادَ فَإِنَّهُ مُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هُودٍ: 11]

وَ كَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:مسلم (2999) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَ لَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١٢)

(وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ)يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم و كفرهم

(وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ)

بعد ما جاءتهم البينات على أيدى الرسل و تبين الحق فلم ينقادوا لها و لم يؤمنوا.

(كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ)

فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله و هذه سنته في جميع الأمم ١٣

(ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ)أيها المخاطبون

(خَلَٰٓئِفَ)خَلَفًا(فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ)من بعد القرون المُهْلَكة

(لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ)أخيرًا أم شرًا فنجازيكم بذلك حسب عملكم.

*فإن أنتم اعتبرتم و اتعظتم بمن قبلكم و اتبعتم آيات الله و صدقتم رسله نجوتم في الدنيا و الآخرة.

*و إن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم أحل بكم ما أحل بهم و من أنذر فقد أعذر.

*مسلم (2742)عَنْ أَبِي مَسْلَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا نَضْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:- «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ(يحتمل أن المراد به شيئان أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلبا حثيثا فكذا الدنيا والثاني سرعة فنائها كالشىء الأخضر في هذين الوصفين)وَ إِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا(جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم)فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَ اتَّقُوا النِّسَاءَ(فاتقوا الدنيا ومعناه اجتنبوا الافتتان بها وبالنساء وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن وأكثرهن فتنة الزوجات لدوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن)فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»

وَ فِي حَدِيثِ ابْنِ بَشَّارٍ:-«لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» ١٤

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ
قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ
إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ
وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ
قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾
وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ)يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ و أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق أعرضوا عنها

(قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا)لا يخافون الحساب و لا يرجون الثواب و لا يؤمنون بيوم البعث و النشور

*و طلبوا وجوه التعنت فقالوا جراءة منهم و ظلما:

(ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ)رُدَّ هَذَا وَ جِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَطٍ آخَرَ أَوْ بَدّله إِلَى وَضْعٍ آخَرَ

*فقبحهم الله ما أجرأهم على الله و أشدهم ظلما و ردًّا لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم:-

(قُلْ مَا يَكُونُ)ينبغي و لا يليق(لِيٓ)

(أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ)فإنى رسول محض ليس لى من الأمر شيء

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ)ليس لي غير ذلك فإني عبد مأمور
إن ذلك ليس إليَّ و إنما أتبع فى كل ما آمركم به و أنهاكم عنه ما ينزله عليَّ ربى و يأمرنى به

(إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي)إني أخشى من الله -إن خالفت أمره-(عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)يوم القيامة.

*فهذا قول خير الخلق و أدبه مع أوامر ربه و وحيه فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين الذين جمعوا بين:-

الجهل و الضلال و الظلم و العناد و التعنت و التعجيز لرب العالمين

أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟!!.

فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التى طلبوا فهم كذبة فى ذلك فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر و هو الذى يصرفها كيف يشاء تابعا لحكمته الربانية و رحمته بعباده.

(قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا)طويلا

(مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ)أى: قبل تلاوته و قبل درايتكم به و أنا ما خطر على بالى و لا وقع فى ظنى.

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)أنى حيث لم أتقوله فى مدة عمرى و لا صدر منى ما يدل على ذلك فكيف أتقوله بعد ذلك و قد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون حقيقة حالى بأنى أمى لا أقرأ و لا أكتب و لا أدرس و لا أتعلم من أحد؟!!

فأتيتكم بكتاب عظيم:- 1-أعجز الفصحاء 2-و أعيا العلماء

فهل يمكن-مع هذا-أن يكون من تلقاء نفسى أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟

فلو أعملتم أفكاركم و عقولكم و تدبرتم حالى و حال هذا الكتاب لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه و أنه الحق الذى ليس بعده إلا الضلال و لكن إذ أبيتم إلا التكذيب و العناد فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

*البخارى7 -عن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ:-

أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَ كَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي المُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَ حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي وَ قَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

فَوَاللَّهِ لَوْلَا الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ........

قَالَ:-فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ.........

وَ سَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ

فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ

*أحمد:22498-عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَ قَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِى فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَ لَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَ لَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَتْ:-فَكَانَ الَّذِى كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ:-

أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَ نَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَ نَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَ نَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَ نُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ.

حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَ صِدْقَهُ وَ أَمَانَتَهُ وَ عَفَافَهُ "

فَدَعَانَا إِلَى اللهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَ نَعْبُدَهُ وَ نَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَ الْأَوْثَانِ وَ أَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَ صِلَةِ الرَّحِمِ وَ حُسْنِ الْجِوَارِ وَ الْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَ الدِّمَاءِ.

وَ نَهَانَا عَنْ: الْفَوَاحِشِ وَ قَوْلِ الزُّورِ وَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَ قَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

وَ أَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَ أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ الصِّيَامِ "16

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ)؟!!

فلو كنت متقولا لكنت أظلم الناس و فاتني الفلاح و لم تخف عليكم حالي و لكني جئتكم بآيات الله فكذبتم بها فتعين فيكم الظلم و لا بد أن أمركم سيضمحل

(إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ)و لن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك.

و دل قوله:(قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا)الآية:–أن الذى حملهم على هذا التعنت الذى صدر منهم هو:– عدم إيمانهم بلقاء الله و عدم رجائه و أن من آمن بلقاء الله فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب و يؤمن به لأنه حسن القصد 17

(وَيَعْبُدُونَ)أى: المشركون المكذبون لرسول اللهﷺ

(مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ)أى: لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع و لا تدفع عنهم شيئا.

(وَيَقُولُونَ)قولا خاليا من البرهان:–(هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ)

أى:يعبدونهم ليقربوهم إلى الله و يشفعوا لهم عنده و هذا قول من تلقاء أنفسهم و كلام ابتكروه هم

و لهذا قال تعالى– مبطلا لهذا القول–:–(قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ)

أي: الله تعالى هو العالم الذى أحاط علما بجميع ما في السماوات و الأرض

و قد أخبركم بأنه ليس له شريك و لا إله معه أفأنتم–يا معشر المشركين–تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟

أفتخبرونه بأمر خفي عليه و علمتوه؟ أأنتم أعلم أم الله؟

فهل يوجد قول أبطل من هذا القول المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول فإنه يجزم بفساده و بطلانه: (سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أى: تقدس و تنزه أن يكون له شريك أو نظير بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذى لا إله فى السماوات و الأرض إلا هو و كل معبود فى العالم العلوى و السفلى سواه فإنه باطل عقلا و شرعا و فطرة

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) ﴿١٨﴾

(وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً)متفقين على الدين الصحيح

و لكنهم(فَٱخْتَلَفُوا۟)

فبعث الله الرسل مبشرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) بإمهال العاصين و عدم معاجلتهم بذنوبهم

(لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)بأن ننجى المؤمنين و نهلك الكافرين المكذبين و صار هذا فارقا بينهم

(فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)و لكنه أراد امتحانهم و ابتلاء بعضهم ببعض ليتبين الصادق من الكاذب ١٩

(وَيَقُولُونَ)أي:–المكذبون المتعنتون

(لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ)يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم:{لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا

و كقولهم: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا}الآيات.

(فَقُلْ)لهم إذا طلبوا منك آية

(إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ)هو المحيط علما بأحوال العباد فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم و حكمته البديعة

و ليس لأحد تدبير في حكم و لا دليل و لا غاية و لا تعليل.

(فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ)كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له فانظروا لمن تكون العاقبة.

*هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺأَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانْشَقَّ بِاثْنَتَيْنِ فِرْقَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ وَ فِرْقَةٍ مِنْ دُونِهِ.

وَ هَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَ مَا لَمْ يَسْأَلُوا وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِرْشَادًا وَ تَثَبُّتًا لَأَجَابَهُمْ وَ لَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَ تَعَنُّتًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا رَابَهُمْ وَ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ أَحَدٌ كَمَا قَالَ{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ96 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يُونُس] وَ قَالَ{وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: 111]

*وَ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الْمُكَابَرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ14 لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}[الْحِجْر] وَ قَالَ{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ} [الطُّور: 44]

وَ قَالَ{وَلَوْ نزلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ}[الأَنْعَام: 7]

فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوهُ لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي جَوَابِ هَؤُلَاءِ لِأَنَّهُ دَائِرٌ عَلَى تَعَنُّتِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ لِكَثْرَةِ فُجُورِهِمْ وَ فَسَادِهِمْ وَ لِهَذَا قَالَ: {فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}٢٠

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ
إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ
وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾
فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ
مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا
وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا
كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾
وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ
إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾

(وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ)كالصحة بعد المرض و الغنى بعد الفقر و الأمن بعد الخوف نسوا ما أصابهم من الضراء و لم يشكروا الله على الرخاء و الرحمة بل استمروا فى طغيانهم و مكرهم.

و لهذا قال:-(إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ)يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق.

(قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ)و استدراجًا و عقوبة لكم

فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله فمقصودهم منعكس عليهم و لم يسلموا من التبعة

*حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُعَذَّبٍ وَ إِنَّمَا هُوَ فِي مُهْلَةٍ ثُمَّ يُؤْخَذُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ وَ الْكَاتِبُونَ الْكِرَامُ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ جَمِيعَ ما يفعله و يحصونه عليه ثم يعرضون عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُجَازِيهِ عَلَى الْحَقِيرِ وَ الْجَلِيلِ وَ النَّقِيرِ و الْقِطْمِير.

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ)

بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون و يحصيه الله عليهم ثم يجازيهم الله عليه أوفر الجزاء21

*لما ذكر تعالى القاعدة العامة فى أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء و اليسر بعد العسر

ذكر حالة تؤيد ذلك و هي حالهم فى البحر عند اشتداده و الخوف من عواقبه فقال:-

(هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ)بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها و هداكم إليها يَحْفَظُكُمْ وَ يَكْلَؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ

(حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ)أى: السفن البحرية

(وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ)موافقة لما يهوونه من غير انزعاج و لا مشقة.

(وَفَرِحُواْ بِهَا)و اطمأنوا إليها فبينما هم كذلك

إذ(جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ)شديدة الهبوب

(وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ)

أي: عرفوا أنه الهلاك فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين و عرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده

(دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ)و وعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام

*لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَمًا وَ لَا وَثَنًا بَلْ يُفْرِدُونَهُ بِالدُّعَاءِ وَ الِابْتِهَالِ

كما قَالَ{وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنْسَانُ كَفُورًا}[الإسراء: 67]

فقالوا:-(لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)على نِعَمك﴿٢٢﴾

(فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ)

أي: نسوا تلك الشدة و ذلك الدعاء و ما ألزموه أنفسهم فأشركوا بالله من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد و لا يدفع عنهم المضايق فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء كما أخلصوها في الشدة؟!!

و لكن هذا البغى يعود وباله عليهم

و لهذا قال: (إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ)

أي: غاية ما تؤملون ببغيكم و شرودكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا و جاهها النزر اليسير الذي سينقضى سريعًا و يمضى جميعًا ثم تنتقلون عنه بالرغم.

*أبي داود 4902 - عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ»

(ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ)فى يوم القيامة

(فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)و فى هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

*فَنُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَ نُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَ مِنْ وجد غير ذلك فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ (٢٣)

(إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ)

و هذا المثل من أحسن الأمثلة و هو مطابق لحالة الدنيا

فإن لذاتها و شهواتها وجاهها و نحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا فإذا استكمل و تم اضمحل و زال عن صاحبه أو زال صاحبه عنه فأصبح صفر اليدين منها ممتلئ القلب من همها و حزنها و حسرتها.

فذلك (كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ)نبت فيها من كل صنف و زوج بهيج

(مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ)كالحبوب و الثمار (وَ) مما تأكل

(وَٱلْأَنْعَٰمُ)كأنواع العشب و الكلأ المختلف الأصناف.

(حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)أي: تزخرفت في منظرها

(وَٱزَّيَّنَتْ)و اكتست في زينتها فصارت بهجة للناظرين و نزهة للمتفرجين و آية للمتبصرين فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر و أصفر و أبيض و غيره.

(وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ)على جذاذها و حصادها

أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر و يدوم لوقوف إرادتهم عنده و انتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة(أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ)

أي:كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا سواء بسواء.

*فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح بادرة فَأَيْبَسَتْ أَوْرَاقَهَا وَ أَتْلَفَتْ ثِمَارَهَا؛

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا)أَيْ: يَبَسًا بَعْدَ تِلْكَ الْخُضْرَةِ وَ النَّضَارَةِ

(كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ)أَيْ: كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حَسْنَاءَ قَبْلَ ذَلِكَ.

*مسلم(2807) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً
ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟
فَيَقُولُ: لَا وَ اللهِ يَا رَبِّ وَ يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ
فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟
فَيَقُولُ: لَا وَ اللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَ لَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ "

(كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ)نبين و نوضح(ٱلْءَايَٰتِ)بتقريب المعاني إلى الأذهان و ضرب الأمثال

(لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ)يُعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

و أما الغافل المعرض فهذا لا تنفعه الآياتو لا يزيل عنه الشك البيان.

*فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا وَ تَمَكُّنِهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا و تَفَلّتها مِنْهُمْ فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِمَّنْ طَلَبَهَا وَ الطَّلَبَ لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا

وَ قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الْأَرْضِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فَقَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ:

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكَهْفِ: 45] { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [الزمر: 21]

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد: 20]

*يَضْرِبُ بِذَلِكَ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ ﴿٢٤﴾

و لما ذكر الله حال الدنيا و حاصل نعيمها شوق إلى الدار الباقية فقال:–

(وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ)

عم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام و الحث على ذلك و الترغيب و سمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات و النقائص و ذلك لكمال نعيمها و تمامه و بقائه و حسنه من كل وجه.

(وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ)فيوفقه(إِلَىٰ)لإصابة(صِرَٰطٖ)أي:-الطريق(مُّسۡتَقِيمٖ)و هو الإسلام.

*و خص بالهداية من شاء استخلاصه و اصطفاءه فهذا فضله و إحسانه و الله يختص برحمته من يشاء

و ذلك عدله و حكمته و ليس لأحد عليه حجة بعد البيان و الرسل ﴿٢٥﴾

۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ
كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ
فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ
إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ
وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ
وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ
فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾

*و لما دعا إلى دار السلام كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها فأخبر عنها بقوله:-

(لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ)

فى عبادة الخالق بأن عبدوه على وجه المراقبة و النصيحة فى عبوديته و قاموا بما قدروا عليه منها

و أحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولى و الفعلي من:-

1-بذل الإحسان المالى 2-و الإحسان البدنى 3-و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

4-و تعليم الجاهلين 5-و نصيحة المعرضين 6-و غير ذلك من وجوه البر و الإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم«الحسنى»و هى الجنة الكاملة فى حسنها

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَبْدَلَهُ الْحُسْنَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلا الْإِحْسَانُ} [الرَّحْمَن: 60]

*مسلم(181)عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:
إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى:تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟
فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَ تُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ
فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ

(وَزِيَادَةٞۖ)هى النظر إلى وجه الله الكريم و سماع كلامه و الفوز برضاه و البهجة بقربه فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون و يسأله السائلون

(وَزِيَادَةٌ)هِيَ تَضْعِيفُ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَ زِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا وَ يَشْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ فِي الْجِنَانِ مِنَ الْقُصُور و الحُور وَ الرِّضَا عَنْهُمْ وَ مَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ وَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَ أَعْلَاهُ النظرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ

فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطُوهُ لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ بَلْ بِفَضْلِهِ وَ رَحْمَتِهِ

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال:-

(وَلَا يَرْهَقُ)يعترى

(وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ)قَتَامٌ وَ سَوَادٌ فِي عَرَصات الْمَحْشَرِ كَمَا يَعْتَرِى وُجُوهَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ مِنَ الْقُتْرَة و الغُبْرَة

(وَلَا ذِلَّةٌ)هَوَانٌ وَ صَغَارٌ أَيْ: لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ وَ لَا فِي الظَّاهِرِ بَلْ هُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً}فِي وُجُوهِهِمْ(وَسُرُورًا)فِي قُلُوبِهِمْ جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَ رَحْمَتِهِ آمِينَ.

*أى: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه لأن المكروه إذا وقع بالإنسان تبين ذلك في وجهه و تغير و تكدر.

و أما هؤلاء-فهم كما قال الله عنهم- (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

(أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ)الملازمون لها

(هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)لا يحولون و لا يزولون و لا يتغيرون26

*لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار فذكر أن بضاعتهم التى اكتسبوها فى الدنيا هى:-

(وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ)المسخطة لله من أنواع الكفر و التكذيب و أصناف المعاصى

(جَزَآءُ)فجزاؤهم أى:-جزاء(سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا)يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم

(وَتَرْهَقُهُمْ)تغشاهم

(ذِلَّةٌ)فى قلوبهم و خوف من عذاب الله و تسرى تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم فتكون سوادًا فى الوجوه .

* كما قَالَ {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}[الشُّورَى: 45]

وَ قَالَ {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ42 مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ43 وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ}[إِبْرَاهِيمَ]

(مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)مانع يقيهم من العذاب و لا يدفعه عنهم دافع و لا يعصمهم منه عاصم

كما قَالَ {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ10 كَلَّا لَا وَزَرَ 11 إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ}[الْقِيَامَةِ]

(كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ)أُلبست وجوههم(وُجُوهُهُمْ قِطَعًا)أجزاء(مِّنَ)سواد(ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا)

*فكم بين الفريقين من الفرق و يا بعد ما بينهما من التفاوت؟!

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ22 إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ23 وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ24 تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)[القيامة]

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ38 ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ39 وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ40 تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ41 أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)[عبس]

إِخْبَارٌ عَنْ سَوَادِ وُجُوهِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ106 وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آلِ عِمْرَانَ]

(أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) ٢٧

(وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ)نجمع

(جَمِيعٗا)أي:– جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم و نحضر المشركين و ما كانوا يعبدون من دون الله.

*أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ مِنْ إِنْسٍ وَ جِنٍّ وَ بَرٍّ وَ فَاجِرٍ كَمَا قَالَ:{وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الْكَهْفِ: 47] .

(ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ)الزموا مكانكم ليقع التحاكم و الفصل بينكم و بينهم.

امْتَازُوا فِيهِ عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس: 59]

وَ قَالَ {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [الرُّومِ: 14] وَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:{يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [الرُّومِ: 43]أَيْ: يَصِيرُونَ صدعين وَ هَذَا يَكُونُ إِذَا جَاءَ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ

(فَزَيَّلۡنَا)فرقنا (بَيۡنَهُمۡۖ)بالبعد البدنى و القلبى و حصلت بينهم العداوة الشديدة

بعد أن بذلوا لهم فى الدنيا خالص المحبة و صفو الوداد فانقلبت تلك المحبة و الولاية بغضًا و عداوة.

*أنهم أَنْكَرُوا عِبَادَتَهُمْ وَ تَبَرَّءُوا مِنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مَرْيَمَ: 82]وَ قَالَ{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} [الْبَقَرَةِ: 166]

وَ قَالَ {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ5 وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}[الْأَحْقَافِ]

(وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم)و تبرأ شُرَكَاؤُهُمْ منهم و قالوا:–

(مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ)فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد٢٨

*وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارًا عَنْ قَوْلِ الشُّرَكَاءِ فِيمَا رَاجَعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ ادِّعَائِهِمْ عِبَادَتَهُمْ:-

(فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ)

*أَيْ:مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَ لَا نَعْلَمُ وَ إِنَّمَا أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا وَ لَا أَمَرْنَاكُمْ بِهَا وَ لَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ.

*ما أمرناكم بها ولا دعوناكم لذلك و إنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك و هو الشيطان كما قال تعالى:–

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

وقال: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

*فالملائكة الكرام و الأنبياء و الأولياء و نحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة و يتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم و هم الصادقون البارون في ذلك

فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها و يعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال و ما أسلفوا من ردیء الخصال و يتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين و أنهم مفترون على الله قد ضلت عبادتهم و اضمحلت معبوداتهم و تقطعت بهم الأسباب و الوسائل﴿٢٩﴾

و لهذا قال تعالى:-(هُنَالِكَ)في ذلك اليوم

(تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ)أي: تتفقد أعمالها و كسبها و تتبعه بالجزاء و تجازى بحسبه

إن خيرًا فخير و إن شرًا فشر و ضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك

و أن ما يعبدون من دون الله تنفعهم و تدفع عنهم العذاب.

*فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخْتَبَرُ كُلُّ نَفْسٍ وَ تَعْلَمُ مَا أَسْلَفَتْ مِنْ عَمَلِهَا مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[الطَّارِق: 9] وَ قَالَ{يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [الْقِيَامَة: 13]

وَ قَالَ{وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا13 اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[الْإِسْرَاء]

(وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ)

وَ رَجَعَتِ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى اللَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ فَفَصَّلَهَا وَ أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ.

(وَضَلَّ)ذَهَبَ(عَنْهُم)أي:-عَنِ الْمُشْرِكِينَ

(مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)ما كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴿٣٠﴾

(قُلْ)لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا—محتجًا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما

أنكروه من توحيد الألوهية–(مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ)

بإنزال الأرزاق من السماء و إخراج أنواعها من الأرض و تيسير أسبابها فيها؟

(أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ)من هو الذي خلقهما و هو مالكهما؟

و خصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل و لكمال شرفهما و نفعهما.

(وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ)كإخراج أنواع الأشجار و النبات من الحبوب و النوى و إخراج المؤمن من الكافر و الطائر من البيضة و نحو ذلك

(وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ)عكس هذه المذكورات

(وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ)في العالم العلوى و السفلى و هذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية فإنك إذا سألتهم عن ذلك

(فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ)لأنهم يعترفون بجميع ذلك و أن الله لا شريك له فى شىء من المذكورات.

(فَقُلۡ)لهم إلزامًا بالحجة

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له و تخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد و الأوثان﴿٣١﴾

(فَذَٰلِكُمُ)الذى وصف نفسه بما وصفها به

(ٱللَّهُ رَبُّكُمُ)المألوه المعبود المحمود المربى جميع الخلق بالنعم و هــو:–

(ٱلۡحَقُّۖ)فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.

(فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ)فأى شىء سوى الحق(إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ)؟فإنه تعالى المنفرد بالخلق و التدبير لجميع الأشياء الذى ما بالعباد من نعمة إلا منه و لا يأتى بالحسنات إلا هو و لا يدفع السيئات إلا هو ذو الأسماء الحسنى و الصفات الكاملة العظيمة و الجلال و الإكرام.

(فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ)عن عبادة من هذا وصفه إلى عبادة الذى ليس له من وجوده إلا العدم و لا يملك لنفسه نفعًا و لا ضرًا و لا موتًا و لا حياة و لا نشورًا.

فليس له من الملك مثقال ذرة و لا شركة له بوجه من الوجوه و لا يشفع عند الله إلا بإذنه فتبا لمن أشرك به و ويحًا لمن كفر به لقد عدموا عقولهم بعد أن عدموا أديانهم بل فقدوا دنياهم و أخراهم﴿٣٢﴾

و لهذا قال تعالى عنهم:–

(كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ)أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِنِى النَّارِ (عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ) كَقَوْلِهِ:-

{قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: 71] .

*بعد ما أراهم الله من الآيات البينات و البراهين النيرات ما فيه عبرة لأولى الألباب و موعظة للمتقين و هدى للعالمين﴿٣٣﴾

قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾
قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ
أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ
إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾
بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ
فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ
وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ
أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾

*يقول تعالى–مبينًا عجز آلهة المشركين و عدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله–

(قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ)يبتديه

(ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ)و هذا استفهام بمعنى النفى و التقرير

أى:ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده و هى أضعف من ذلك و أعجز

(قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ)من غير مشارك و لا معاون له على ذلك.

(فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ)

تصرفون و تنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء و الإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئًا و هم يخلقون34

(قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ)ببيانه و إرشاده أو بإلهامه و توفيقه.

(قُلِ ٱللَّهُ)وحده(يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ)بالأدلة و البراهين و بالإلهام و التوفيق و الإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

(أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ)أَفَيُتَّبَع العبد الذى يهدى إلى الْحَقِّ و يُبَصِّر بَعْدَ الْعَمَى

(أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ)يهتدى

(إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۚ)لعدم علمه و لضلاله و هى شركاؤهم التى لا تهدى و لا تهتدى إلا أن تهدى

*أَمِ الَّذِى لَا يَهْدِى إِلَى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ يُهْدَى لِعَمَاهُ وَ بُكْمِهِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ:-

{يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}[مَرْيَم: 42]

وَقَالَ لِقَوْمِهِ:{أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ95 وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}[الصَّافَّات]إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

(فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ)

أى:—أىّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع الله بعد ظهور الحجة و البرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس فى آلهتهم التى يعبدون مع الله أوصافا معنوية و لا أوصافا فعلية تقتضى أن تعبد مع الله بل هى متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها

فلأى شيء جعلت مع الله آلهة؟ فالجواب:—

أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أقبح البهتان وأضل الضلال حتى اعتقد ذلك و ألفه وظنه حقًا و هو لا شيء35

(وَمَا يَتَّبِعُ)فى الحقيقة

(أَكۡثَرُهُمۡ)أى:-أكثر هؤلاء المشركين فى جعلهم الأصنام آلهة شركاء لله و اعتقادهم بأنها تقرِّب إلى الله

(إِلَّا ظَنًّاۚ)تخرصًا و ظنًّا فإنه ليس لله شريك أصلا عقلا و لا نقلا و إنما يتبعون الظن

و(إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ)اليقين(شَيۡـًٔاۚ)فسموها آلهة و عبدوها مع الله

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ)و سيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة36

(وَمَا كَانَ)غير ممكن و لا متصور

(هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ)لا يكون الا من عند الله لأنه الكتاب العظيم

الذى(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

*و هو الكتاب الذى لو اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرًا

*و هو كتاب الله الذي تكلم به رب العالمين فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه و الكلام تابع لعظمة المتكلم و وصفه؟!!.

*فإن كان أحد يماثل الله في عظمته و أوصاف كماله أمكن أن يأتى بمثل هذا القرآن و لو تنزلنا على الفرض

و التقدير فتقوله أحد على رب العالمين لعاجله بالعقوبة و بادره بالنكال.

(وَلَٰكِن)الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين و حجة على العباد أجمعين.

أنزله(تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ)من كتب الله السماوية بأن وافقها و صدقها بما شهدت به و بشرت بنزوله فوقع كما أخبرت.

(وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ)للحلال و الحرام و الأحكام الدينية و القدرية و الإخبارات الصادقة.

(لَا رَيۡبَ)لا شك و لا مرية(فِيهِ)بوجه من الوجوه(مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)

بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذى ربى جميع الخلق بنعمه.

*و من أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذى فيه:–

1–مصالحهم الدينية و الدنيوية 2–المشتمل على مكارم الأخلاق و محاسن الأعمال٣٧

(أَمۡ يَقُولُونَ)أى:المكذبون به عنادًا و بغيًا:

(ٱفۡتَرَىٰهُۖ)محمدﷺ على الله و اختلقه

(قُلۡ)لهم–ملزما لهم بشيء–إن قدروا عليه أمكن ما ادعوه و إلا كان قولهم باطلا.

(فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

*يعاونكم على الإتيان بسورة مثله و هذا محال و لو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم على ذلك و لأتوا بمثله.

و لكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل لا حظ له من الحجة

*وَ هَذَا هُوَ الْمَقَامُ الثَّالِثُ فِي التَّحَدِّى فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَ دَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَلْتُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ وَحْدَهُ وَ اسْتَعِينُوا بِمَنْ شِئْتُمْ وَ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى:-

{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الْإِسْرَاءِ: 88]

ثُمَّ تَقَاصَرَ مَعَهُمْ إِلَى عَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ فَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ:-{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[هُودٍ: 13]

ثُمَّ تَنَازَلَ إِلَى سُورَةٍ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ:-{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} وَ كَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ-وَ هِيَ مَدَنِيَّةٌ-تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ مِنْهُ وَ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ أَبَدًا فَقَالَ:-{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ} الْآيَةَ: [الْبَقَرَةِ: 24] ٣٨

(بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ)

و الذى حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علمًا.

فلو أحاطوا به علمًا و فهموه حق فهمه لأذعنوا بالتصديق به

(وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)وَ لَمْ يُحصّلوا مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ إِلَى حِينِ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ جَهْلًا وَ سَفَهًا

*و كذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذى وعدهم أن ينزل بهم العذاب و يحل بهم النكال

و هذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم و لهذا قال:–

(كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ)

و هو الهلاك الذى لم يبق منهم أحدًا.

فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين و القرون المهلكين.

و في هذا دليل على التثبت في الأمور و أنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علمًا(٣٩)

(وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ)أى: بالقرآن و ما جاء به

(وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ)

و هم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد و الظلم و الفساد فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب(٤٠)

(وَإِن كَذَّبُوكَ)

فاستمر على دعوتك و ليس عليك من حسابهم من شيء و ما من حسابك عليهم من شيء لكل عمله.

(فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

لى دينى و عملى و لكم دينكم و عملكم فأنتم لا تؤاخَذون بعملى و أنا لا أؤاخَذ بعملكم.

كما قال تعالى:(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

*كَقَوْلِهِ تعالى:{قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ 1 لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ 2 وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ 3 وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ 4 وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ 5 لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سُورَةُ الْكَافِرُونَ]

وَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ وَ أَتْبَاعُهُ لِقَوْمِهِمُ الْمُشْرِكِينَ:-{إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الْمُمْتَحَنَةِ: 4] (٤١)

*يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول و لما جاء به

(وَ)أن(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ)إلى النبى ﷺ وقت قراءته للوحي لا على وجه الاسترشاد بل على وجه التفرج

و التكذيب و تطلب العثرات و هذا استماع غير نافع و لا مُجدٍ على أهله خيرًالا جرم انسد عليهم باب التوفيق و حرموا من فائدة الاستماع و لهذا قال:–

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ)أفأنت تَقْدر على إسماع الصم؟

فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله هدايتهم لأنهم صمٌّ عن سماع الحق لا يعقلون.

*و هذا الاستفهام بمعنى النفى المتقرر أى:-لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول و لو جهرت به و خصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا.

*فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذى لا يعقل للكلام فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعًا ينتفعون به.

*و أما سماع الحجة فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم و هو طريق المسموعات المتعلقة بالخير﴿٤٢﴾

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ
شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ
قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾
قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾
أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾
ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

*ثم ذكر انسداد الطريق الثانى و هو: طريق النظر فقال:-

(وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ)فلا يفيده نظره إليك و لا سبر أحوالك شيئًا

*يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ إِلَى مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ التُّؤَدَةِ وَ السَّمْتِ الْحَسَنِ وَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَ الدَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى نُبُوءَتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَ النُّهَى

*وَ هَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كما ينظر غَيْرُهُمْ وَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ وَ الْكَافِرُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ

{وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا41 إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا} [الْفُرْقَانِ]

(أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ)فكما أنك لا تهدى العمى

(وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ)فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم و أسماعهم و أبصارهم التى هى الطرق الموصلة إلى العلم و معرفة الحقائق فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

و دل قوله:(وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ)الآية:-أن النظر إلى حالة النبىﷺو هديه و أخلاقه و أعماله و ما يدعو إليه من

أعظم الأدلة على صدقه و صحة ما جاء به و أنه يكفى البصير عن غيره من الأدلة 43

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا)فلا يزيد فى سيئاتهم و لا ينقص من حسناتهم.

*ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ قَدْ هَدَى بِهِ مِنْ هَدَى مِنَ الْغَيِّ وَ بَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى وَ فَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَ آذَانًا صُمًّا وَ قُلُوبًا غُلْفًا وَ أَضَلَّ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخَرِينَ

فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ الَّذِى لَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَ حِكْمَتِهِ وَ عَدْلِهِ

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:-{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

وَ فِي مسلم (2577) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:-

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسى وَ جَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ......

يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ

وَ مَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»

قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

(وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)

يجيئهم الحق فلا يقبلونه فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم و الختم على أسماعهم و أبصارهم.

*يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا و أن الله تعالى إذا حشر الناس و جمعهم ليوم لا ريب فيه 44

(كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ) كأنهم ما لبثوا(إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ)و كأنه ما مر عليهم نعيم و لا بؤس

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النَّازِعَاتِ: 46]

وَ قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا 102 يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا 103 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا} [طه]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ 55 وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الرُّومِ]

و هَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِقْصَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ:

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأرْضِ عَدَدَ سِنِينَ 112 قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ 113 قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ]

(يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ)و هم يتعارفون بينهم كحالهم فى الدنيا ففي هذا اليوم يربح المتقون

*يَعْرِفُ الْأَبْنَاءُ الْآبَاءَ و القرابات بعضهم لبعض كما كانوا فى الدُّنْيَا وَ لَكِنْ كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ: 101]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا 10 يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ 11 وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ 12 وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ 13 وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ 14 كَلا} [الْمَعَارِجِ]

(قَدۡ خَسِرَ)و يخسر(ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ)

* كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}[الْمُرْسَلَاتِ: 15] لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.
فَهَذِهِ هِيَ الْخَسَارَةُ الْعَظِيمَةُ وَ لَا خَسَارَةَ أَعْظَمُ مِنْ خَسارة مَنْ فُرّق بَيْنَهُ وَ بَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَ النَّدَامَةِ.

(وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ)إلى الصراط المستقيم و الدين القويم حيث فاتهم النعيم و استحقوا دخول النار45

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ)فِي حَيَاتِكَ(بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ)بأن نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ لِتَقَرَّ عينُك مِنْهُمْ

*أى:لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين و لا تستعجل لهم فإنهم لا بد أن يصيبهم الذى نعدهم من العذاب إما فى الدنيا فتراه بعينك و تقر به نفسك.

(أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ)و إما فى الآخرة بعد الوفاة

(فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ)مَصِيرُهُمْ و متقَلَبهم

*فإن مرجعهم إلى الله و سينبئهم بما كانوا يعملون أحصاه و نسوه

(ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ)وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ بَعْدَكَ.

*و الله على كل شيء شهيد ففيه الوعيد الشديد لهم و التسلية للرسول الذى كذبه قومه و عاندوه٤٦

(وَلِكُلِّ أُمَّةٖ)من الأمم الماضية (رَّسُولٞ)يدعوهم إلى توحيد الله و دينه.

(فَإِذَا جَآءَ)هم(رَسُولُهُمۡ)بالآيات صدقه بعضهم و كذبه آخرون

(قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ)فيقضى الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين و إهلاك المكذبين

* كَمَا قَالَ{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[الزُّمَرِ: 69]
فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا و كتابُ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ موضوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ وَ حَفَظَتُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شهودٌ أَيْضًا أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ.
وَ هَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَ إِنْ كَانَتْ آخِرَ الْأُمَمِ فِي الْخَلْقِ إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ وَ يُقْضَى لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مسلم (856) عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَ كَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ
فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَ الْأَحَدَ وَ كَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»
*البخارى 876 -عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:-
«نَحْنُ الآخِرُونَ(زمانا)السَّابِقُونَ(منزلة وفضلا)يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْدَ(غير)أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا
ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ(الذي فرض عليهم تعظيمه والاجتماع فيه) الَّذِى فُرِضَ عَلَيْهِمْ
فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ (يأتون من ورائنا كالخدم)اليَهُودُ غَدًا وَ النَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»

(وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ)بـأن يعذبوا:—

1-قبل إرسال الرسول و بيان الحجة 2-أو يعذبوا بغير جرمهم

فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين فيحل بهم ما حل بأولئك و لا يستبطئوا العقوبة﴿٤٧﴾

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

فإن هذا ظلم منهم حيث طلبوه من النبى ﷺ فإنه ليس له من الأمر شيء و إنما عليه البلاغ والبيان للناس﴿٤٨﴾

(قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ)

و أما حسابهم و إنزال العذاب عليهم فمن الله تعالى ينزله عليهم إذا جاء

(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)الذى أجله فيه و الوقت الذى قدره فيه الموافق لحكمته الإلهية.

(إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ)فإذا جاء ذلك الوقت(فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذى إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما قَالَ{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [الْمُنَافِقُونَ: 11]و لهذا قال:-

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا)وقت نومكم بالليل

(أَوْ نَهَارًا)فى وقت غفلتكم(مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ)أى:أى بشارة استعجلوا بها؟ و أى عقاب ابتدروه؟﴿٥٠﴾

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ)

فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله و يقال لهم توبيخًا و عتابًا فى تلك الحال التى زعموا أنهم يؤمنون

(ءَآلْـَٰٔنَ)تؤمنون فى حال الشدة و المشقة؟

(وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ)

فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها

كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق:-(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

و أنه يقال له:(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

و قال(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ)﴿٥١﴾

و قال هنا:(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ)تدعون الإيمان

(وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ)فهذا ما عملت أيديكم و هذا ما استعجلتم به.

*أَنَّهُمْ إِذَا جاءَهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا{رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السَّجْدَة: 12]

وَ قَالَ{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ84 فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غَافِر]

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا)حين يوفون أعمالهم يوم القيامة:—

(ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ)أى:العذاب الذى تخلدون فيه و لا يفتر عنكم ساعة.

(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)من الكفر و التكذيب و المعاصى.

*يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا تَبْكِيتًا وَ تَقْرِيعًا كَقَوْلِهِ:

{يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا13هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ14 أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ15 اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[الطور] ﴿٥٢﴾

*يقول تعالى لنبيه ﷺ:—

(وَيَسْتَنبِئُونَكَ)يستخبرك المكذبون على وجه التعنت و العناد لا على وجه التبين و الرشاد

(أَحَقٌّ)أصحيح

(هُوَ)أى:—حشر العباد و بعثهم بعد موتهم ليوم المعاد و جزاء العباد بأعمالهم إن خيرًا فخير و إن شرًا فشر؟

(قُلْ)لهم مقسمًا على صحته مستدلا عليه بالدليل الواضح و البرهان: —

(إِي)نعم

(وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ)لا مرية فيه و لا شبهة تعتريه.

أَيْ:-لَيْسَ صَيْرُورَتُكُمْ تُرَابًا بِمُعْجِزِ اللهِ عَنْ إِعَادَتِكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ:-

{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[يس: 82]

وَ هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا آيَتَانِ أُخْرَيَانِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يُقْسِمَ بِهِ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْمَعَادَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ:-{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سَبَأ: 3]

وَ فِي التَّغَابُنِ:{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[التَّغَابُن: 7]

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ)

لله أن يبعثكم فكما ابتدأ خلقكم و لم تكونوا شيئًا كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم﴿٥٣﴾

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ
أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٞ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾
قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٖ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا
قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٖ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٖ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٖ
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(و) إذا كانت القيامة (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ)بالكفر و المعاصى جميع

(مَا فِي ٱلْأَرْضِ)من ذهب و فضة و غيرهما لتفتدى به من عذاب الله

(لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ)و لما نفعها ذلك و إنما النفع و الضر و الثواب و العقاب على الأعمال الصالحة و السيئة.

(وَأَسَرُّواْ)أى:–الذين ظلموا

(ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ)ندموا على ما قدموا و لات حين مناص

(وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ)العدل التام الذى لا ظلم و لا جور فيه بوجه من الوجوه.

(أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ)يحكم فيهم بحكمه الدينى و القدرى و سيحكم فيهم بحكمه الجزائى.

و لهذا قال: (أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)فلذلك لا يستعدون للقاء الله بل ربما لم يؤمنوا به

و قد تواترت عليه الأدلة القطعية و البراهين النقلية و العقلية55

(هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ)هو المتصرف بالإحياء و الإماتة و سائر أنواع التدبير لا شريك له في ذلك.

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم خيرها و شرها56

*يقول تعالى–مرغبًا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال:–

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ)

أي: تعظكم و تنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله المقتضية لعقابه و تحذركم عنها ببيان آثارها و مفاسدها.

هذا القرآن هو(وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ)مـن:–

1–أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع 2–و أمراض الشبهات القادحة فى العلم اليقينى

فإن ما فيه من المواعظ و الترغيب و الترهيب و الوعد و الوعيد مما يوجب للعبد الرغبة و الرهبة.

*و إذا وجدت فيه الرغبة في الخير و الرهبة من الشر و نمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن

أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس و صار ما يرضى الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

و كذلك ما فيه من البراهين و الأدلة التى صرفها الله غاية التصريف و بينها أحسن بيان مما يزيل الشبه القادحة في الحق و يصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

و إذا صح القلب من مرضهو رفل بأثواب العافية⇦تبعته الجوارح كلها فإنها تصلح بصلاحه و تفسد بفساده.

* كَمَا قَالَ{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الإسرَاء: 82]

وَ قَالَ{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت 44]

(وَهُدٗى)فالهدى هو العلم بالحق و العمل به.

(وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ)و الرحمة هي ما يحصل من الخير و الإحسان و الثواب العاجل و الآجل لمن اهتدى به

*فالهدى أجل الوسائل

*و الرحمة أكمل المقاصد و الرغائب و لكن لا يهتدى به و لا يكون رحمة إلا فى حق المؤمنين.

و إذا حصل الهدى و حلت الرحمة الناشئة عنه⇦حصلت السعادة و الفلاح و الربح و النجاح و الفرح و السرور ٥٧

و لذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال:–

(قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ)الذى هو القرآن الذى هو أعظم نعمة و منة و فضل تفضل الله به على عباده

(وَبِرَحۡمَتِهِۦ)الدين و الإيمان و عبادة الله و محبته و معرفته.

(فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ)من متاع الدنيا و لذاتها.

*و هذا مما يتسلى به المصاب أن يتذكر كيف هداه الله للاسلام و جعله من أمة خير الانام

*فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها و بين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب.

و إنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله و رحمته لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس و نشاطها و شكرها لله تعالى و قوتها و شدة الرغبة فى العلم و الإيمان الداعى للازدياد منهما و هذا فرح محمود

*بخلاف الفرح بشهوات الدنيا و لذاتهاأو الفرح بالباطل فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له:–

(لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

و كما قال تعالى فى الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل:–

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) ٥٨

*يقول تعالى – منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله و تحليل ما حرم – :

(قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ)

يعنى أنواع الحيوانات المحللة التى جعلها الله رزقا لهم و رحمة فى حقهم

(فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا)

(قُلْ)لهم–موبخا على هذا القول الفاسد–:–(ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ)

و من المعلوم أن الله لم يأذن لهم فعلم أنهم مفترون

*نَزَلَتْ إِنْكَارًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ وَ يُحِلُّونَ مِنَ الْبَحَائِرِ وَ السَّوَائِبِ وَ الْوَصَايَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-
{وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام: 136] الْآيَاتِ.

*أحمد 15891 سَمِعْتُ أَبَا الْأَحْوَصِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-
أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺوَ أَنَا قَشِفُ الْهَيْئَةِ فَقَالَ: " هَلْ لَكَ مَالٌ؟ "قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ
قَالَ:-" فَمَا مَالُكَ؟ " فَقَالَ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الْخَيْلِ وَ الْإِبِلِ وَ الرَّقِيقِ وَ الْغَنَمِ
قَالَ:-" فَإِذَا آتَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ " فَقَالَ:-هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانُهَا
فَتَعْمَدُ إِلَى الْمُوسَى فَتَقْطَعُهَا أَوْ تَقْطَعُهَا؟ وَ تَقُولُ: هَذِهِ بُحُرٌ وَ تَشُقُّ جُلُودَهَا
وَ تَقُولُ: هَذِهِ صُرُمٌ فَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَ عَلَى أَهْلِكَ "قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ
قَالَ:"كُلُّ مَا آتَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ حِلٌّ وَ سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ و مُوسَى اللهِ أَحَدُّ " وَ رُبَّمَا قَالَهَا وَ رُبَّمَا لَمْ يَقُلْهَا
وَ رُبَّمَا قَالَ:"سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ وَ مُوسَى اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ " قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ رَجُلٌ نَزَلْتُ
بِهِ فَلَمْ يَقْرِنِي وَ لَمْ يُكْرِمْنِى ثُمَّ نَزَلَ بِي أَقْرِهِ أَوْ أَجْزِيهِ بِمَا صَنَعَ؟ قَالَ:-" بَلْ اقْرِهِ" ٥٩

(وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ)

أن يفعل الله بهم من النكال و يحل بهم من العقاب قال(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ)

(إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ)كثير و ذو إحسان جزيل

* قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا.
قُلْتُ:وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا
وَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

1–إما أن لا يقوموا بشكرها 2–و إما أن يستعينوا بها على معاصيه

3–و إما أن يحرموا منها و يردوا ما منَّ الله به على عباده و قليل منهم الشاكر الذى يعترف بالنعمة و يثني بها على الله و يستعين بها على طاعته.

و يستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل إلا ما ورد الشرع بتحريمه لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذى أنزله لعباده ﴿٦٠﴾

*يخبر تعالى عن عموم مشاهدته و اطلاعه على جميع أحوال العباد فى حركاتهم و سكناتهم و فى ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام فقال:–

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ)حال من أحوالك الدينية و الدنيوية.

(وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ)من القرآن الذى أوحاه الله إليك.

(وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ)صغير أو كبير

(إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ)تأخذون(فِيهِ)وقت شروعكم فيه و استمراركم على العمل به.

فراقبوا الله فى أعمالكم و أدوها على وجه النصيحة و الاجتهاد فيها و إياكم و ما يكره الله تعالى فإنه مطلع عليكم عالم بظواهركم و بواطنكم.

(وَمَا يَعْزُبُ)يغيب(عَن)علم و سمع و بصر و مشاهدة(رَّبِّكَ)

(مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

أى: قد أحاط به علمه و جرى به قلمه.

و هاتان المرتبتان من مراتب القضاء و القدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما

و هما:–العلم المحيط بجميع الأشياء و كتابته المحيطة بجميع الحوادث كقوله تعالى:–

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

*البخارى50-قَالَ النبي ﷺ:-«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»﴿٦١﴾

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾
وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾
أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾
مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾

*يخبر تعالى عن أوليائه و أحبائه و يذكر أعمالهم و أوصافهم و ثوابهم فقال:-

(أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ)فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف و الأهوال.

(وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)

على ما أسلفوا لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال و إذا كانوا لا خوف عليهم و لا هم يحزنون ثبت لهم الأمن و السعادة و الخير الكثير الذى لا يعلمه إلا الله تعالى.

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ قَالَ:-"الَّذِينَ إِذَا رءوا ذُكر اللَّهُ"

ثم ذكر وصفهم فقال:-(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بالله و ملائكته و كتبه ورسله و اليوم الآخر و بالقدر خيره و شره

(وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)و صدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر و اجتناب النواهى.

فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليًا

و (لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)

أما البشارة فى الدنيا فهى:-

1-الثناء الحسن 2-و المودة فى قلوب المؤمنين 3-و الرؤيا الصالحة

4-و ما يراه العبد من لطف الله به و تيسيره لأحسن الأعمال و الأخلاق و صرفه عن مساوئ الأخلاق.

(وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ)

1–فأولها البشارة عند قبض أرواحهم كما قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

2–و في القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى و النعيم المقيم.

3–و فى الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم و النجاة من العذاب الأليم.

*وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي قَوْلِهِ:{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}
قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ أَبَا الدَّرْدَاءِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ:-
لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ شَيْءٍ مَا سمعتُ أَحَدًا سَأَلَ عَنْهُ بَعْدَ رَجُلٍ سَأَلَ عَنْهُ رسولَ اللَّهِ فَقَالَ:-
هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ بُشْرَاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ بُشْرَاهُ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ. ( )

*وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِالْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ30 نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ31 نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[فُصِّلَتْ]

*النسائى 1833 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:
إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: -
اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللَّهِ وَ رَيْحَانٍ وَ رَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ
حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ:
مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟
مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟
قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ وَ إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ
فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الْأَرْضِ فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ "

*وَ أَمَّا بُشْرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَكَمَا قَالَ{لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ}[الأَنْبِيَاءِ 103]وَ قَالَ{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الْحَدِيدِ: 12]

(لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ)بل ما وعد الله فهو حق لا يمكن تغييره و لا تبديله لأنه الصادق فى قيله الذى لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره و قضاه.

(ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ)لأنه اشتمل على:–

قال الشيخ العدوى:اورده الحافظ من عدة طرق و نراها بمجموعها تصح و ان لم طريق منها من مقال و هذا التفسير قال به عدد من أهل العلم

1-النجاة من كل محذور 2-و الظفر بكل مطلوب محبوب

و حصر الفوز فيه لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان و التقوى.

*و الحاصل أن البشرى شاملة لكل خير و ثواب رتبه الله فى الدنيا و الآخرة على الإيمان و التقوى

و لهذا أطلق ذلك فلم يقيده.

(وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ)

و لا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التى يتوصلون بها إلى القدح فيك و فى دينك

فإن أقوالهم لا تعزهم و لا تضرك شيئًا.

(إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ)يؤتيها من يشاء و يمنعها ممن يشاء. قال تعالى:(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

أي: فليطلبها بطاعته بدليل قوله بعده:-(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

و من المعلوم أنك على طاعة الله و أن العزة لك و لأتباعك من الله (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(هُوَ ٱلسَّمِيعُ)أى: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات فلا يخفى عليه شيء منها.

(ٱلۡعَلِيمُ)و علمه قد أحاط بجميع الظواهر و البواطن فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات و الأرض

و لا أصغر من ذلك و لا أكبر. و هو تعالى يسمع قولك و قول أعدائك فيك

و يعلم ذلك تفصيلا فاكتف بعلم الله و كفايته فمن يتق الله فهو حسبه﴿٦٥﴾

(أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)

يخبر تعالى:أن له ما فى السماوات و الأرض خلقًا و ملكًا و عبيدًا يتصرف فيهم بما شاء من أحكامه

فالجميع مماليك لله مسخرون مدبرون لا يستحقون شيئًا من العبادة و ليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه و لهذا

قال:-(وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ)

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ)الذى لا يغنى من الحق شيئًا

(وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ)فى ذلك خرص كذب و إفك و بهتان.

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة فلن يستطيعوا

فهل منهم أحد يخلق شيئًا أو يرزق أو يملك شيئًا من المخلوقات أو يدبر الليل و النهار الذى جعله الله قياما

للناس؟﴿٦٦﴾

و (هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ)

في النوم و الراحة بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض فلو استمر الضياء لما قروا و لما سكنوا.

(وَ)جعل الله(وَٱلنَّهَارَ)أي:–مضيئًا يبصر به الخلق فيتصرفون في معايشهم و مصالح دينهم و دنياهم.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ)

عن الله سمع فهم و قبول و استرشاد لا سمع تعنت و عناد فإن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون

يستدلون بها على أنه وحده المعبود و أنه الإله الحق و أن إلهية ما سواه باطلة و أنه الرءوف الرحيم العليم

الحكيم﴿٦٧﴾

*يقول تعالى مخبرًا عن بهت المشركين لرب العالمين :–

(قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ)فنزه نفسه عن ذلك بقوله:

(سُبۡحَٰنَهُۥۖ)تنزه عما يقول الظالمون فى نسبة النقائص إليه علوًا كبيرًا

ثم برهن على ذلك بعدة براهين:–

1–قوله:–(هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ)منحصر فيه و أنواع الغنى مستغرقة فيه فهو الغنى الذى له الغنى التام بكل وجه

و اعتبار من جميع الوجوه فإذا كان غنيًا من كل وجه فلأى شيء يتخذ الولد؟

ألحاجة منه إلى الولد فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدًا إلا لنقص في غناه.

2–قوله:–(لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)

و هذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات و الأرض الجميع مخلوقون عبيد مماليك.

*و من المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد فإن الولد من جنس والده لا يكون مخلوقًا

و لا مملوكًا. فملكيته لما فى السماوات و الأرض عمومًا تنافى الولادة.

3–قوله:–(إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ)

أي: هل عندكم من حجة و برهان يدل على أن لله ولدًا فلو كان لهم دليل لأبدوه

فلما تحداهم و عَجَّزهم عن إقامة الدليل عُلِم بطلان ما قالوه. و أن ذلك قول بلا علم و لهذا قال:–

(أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ)فإن هذا من أعظم المحرمات﴿٦٨﴾

(قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ)لا ينالون مطلوبهم و لا يحصل لهم مقصودهم﴿٦٩﴾

(مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا)و إنما يتمتعون في كفرهم و كذبهم في الدنيا قليلا

(ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ)ثم ينتقلون إلى الله و يرجعون إليه

(ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ فيذيقهم العذاب الشديد

(بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ)(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)٧٠

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ
وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ
وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾
ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى لنبيه:-(وَٱتۡلُ)اخبر و اقصص(عَلَيۡهِمۡ)على قومك(كفار مكة)

(نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ)فى دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدة طويلة فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا فتمللوا منه و سئموا و هو ﷺغير متكاسل و لا متوان فى دعوتهم

فقال لهم:-(يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ)شق(عَلَيۡكُم)و عظم لديكم

(مَّقَامِي)عندكم

(وَتَذۡكِيرِي)إياكم ما ينفعكم

(بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ)الأدلة الواضحة البينة و أردتم أن تنالونى بسوء أو تردوا الحق.

(فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ)اعتمدت على الله فى دفع كل شر يراد بى و بما أدعو إليه فهذا جندى و عدتى.

و أنتم فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العَدَد و العُدد.

(فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ)كلكم بحيث لا يتخلف منكم أحد و لا تدخروا من مجهودكم شيئًا.

(وَ)أحضروا(وَشُرَكَآءَكُمۡ)الذين كنتم تعبدونهم و توالونهم من دون الله رب العالمين.

(ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ)أى:مشتبهًا خفيًا بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية.

(ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ)علىَّ بالعقوبة و السوء الذى فى إمكانكم

(وَلَا تُنظِرُونِ)تمهلونى ساعة من نهار.

فهذا برهان قاطع و آية عظيمة على صحة رسالته و صدق ما جاء به حيث كان وحده لا عشيرة تحميه و لا جنود تؤويه.

و قد بادأ قومه بتسفيه آرائهم و فساد دينهم و عيب آلهتهم.

و قد حملوا من بغضه و عداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسى و هم أهل القدرة و السطوة

و هو يقول لهم:–اجتمعوا أنتم و شركاؤكم و من استطعتم و أبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد

فأوقعوا بى إن قدرتم على ذلك فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقًا و هم الكاذبون فيما يدعون كَمَا قَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ:{إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ54 مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ55 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[هُودٍ] 71

و لهذا قال:(فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ)أدبرتم عن ما دعوتكم إليه فلا موجب لتوليكم لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق و إنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

و مع هذا (فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ)على دعوتى و على إجابتكم

فتقولوا:–هذا جاءنا ليأخذ أموالنا فتمتنعون لأجل ذلك.

(إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ)أى:–لا أريد الثواب و الجزاء إلا منه

(وَ) أيضا فإنى ما أمرتكم بأمر و أخالفكم إلى ضده

بل(وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)فأنا أول داخل و أول فاعل لما أمرتكم به.

*و أنا ممتثل ما أمرت به مِنَ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ الْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ وَ إِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَ تَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ كَمَا قَالَ{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [الْمَائِدَةِ: 48]

*البخارى3442 عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-

أَنَا أَوْلَى النَّاسِ(أخص الناس به وأقربهم إليه لأنه بشر به أو لأنه لا نبي بينهما فكأنهما في زمن واحد)بِابْنِ مَرْيَمَ وَ الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ (هم الأخوة لأب واحد من أمهات مختلفة و المعنى أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن و حسب العموم و الخصوص)

لَيْسَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ نَبِيٌّ»72

(فَكَذَّبُوهُ)بعد ما دعاهم ليلا و نهارًا سرًا و جهارًا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا

(فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ)الذى أمرناه أن يصنعه بأعيننا و قلنا له إذا فار التنور:-

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ)ففعل ذلك.

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر و فجر الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر:

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تجرى بأعيننا)

(وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ)فى الأرض بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله فى ذريته و جعل ذريته هم الباقين و نشرهم فى أقطار الأرض

(وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا)بعد ذلك البيان و إقامة البرهان

(فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ)و هو:-الهلاك المخزى و اللعنة المتتابعة عليهم فى كل قرن يأتى بعدهم

لا تسمع فيهم إلا لوما و لا ترى إلا قدحًا و ذمًا.

فليحذر هؤلاء المكذبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك و الخزى و النكال73

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ)من بعد نوح عليه السلام

(رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ)المكذبين يدعونهم إلى الهدى و يحذرونهم من أسباب الردى.

(فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ)أى:-كل نبى أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

(فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟)ليصدِّقوا و يعملوا

(بِمَا كَذَّبُوا۟)كذَّب(بِهِۦ)قوم نوح(مِن قَبْلُ)و مَن سبقهم من الأمم الخالية.

*يعنى:-أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه:-

1-طبع الله على قلوبهم 2-و حال بينهم و بين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه

كما قال تعالى:(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)الانعام110 و لهذا قال هنا:-

(كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ)نختم(عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ)عليها

فلا يدخلها خير و ما ظلمهم الله و لكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم و تكذيبهم الأول ٧٤

(ثُمَّ بَعَثْنَا)من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين.

(مُّوسَىٰ)بن عمران كليم الرحمن أحد أولي العزم من المرسلين و أحد الكبار المقتدى بهم المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة.

(وَ)جعلنا معه أخاه(وَهَٰرُونَ)وزيرًا بعثناهما

(إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ)كبار دولته و رؤسائهم لأن عامتهم تبع للرؤساء.

(بِـَٔايَٰتِنَا)الدالة على صدق ما جاءا به من توحيد الله و النهى عن عبادة ما سوى الله تعالى

(فَٱسۡتَكۡبَرُواْ)عنها ظلمًا و علوًا بعد ما استيقنوها.

(وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ)أى: وصفهم الإجرام و التكذيب75

(فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ)الذى هو أكبر أنواع الحق و أعظمها و هو من عند الله الذى خضعت لعظمته الرقاب و هو رب العالمين المربى جميع خلقه بالنعم.

(مِنۡ عِندِنَا)من عند الله على يد موسى ردوه فلم يقبلوه

و(قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ)لم يكفهم–قبحهم الله–إعراضهم و لا ردهم إياه حتى جعلوه أبطل الباطل و هو السحر:–الذى حقيقته التمويه بل جعلوه سحرًا مبينًا ظاهرًا و هو الحق المبين.

*كَأَنَّهُمْ -قبَّحهم اللَّهُ -أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِبٌ وَ بُهْتَانٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[النَّمْلِ: 14] ٧٦

و لهذا (قَالَ)لهم(مُوسَىٰٓ)–موبخا لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس:–

(أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ)إنه سحر مبين.

(أَسِحۡرٌ هَٰذَا)أى:–فانظروا وصفه و ما اشتمل عليه فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق.

(وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ)

لا فى الدنيا و لا فى الآخرة فانظروا لمن تكون له العاقبة و لمن له الفلاح و على يديه النجاح.

و قد علموا بعد ذلك و ظهر لكل أحد أن موسى ﵇هو الذى أفلح و فاز بظفر الدنيا و الآخرة٧٧

(قَالُوٓاْ)رادين لقوله بما لا يرده:–

(أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا)لتصدنا

(عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا)من الشرك و عبادة غير الله و تأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟

فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى ﵇

(وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ)أى:و جئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء و لتخرجونا من أرضنا.و هذا:–

1-تمويه منهم 2-و ترويج على جهالهم 3-و تهييج لعوامهم على معاداة موسى و عدم الإيمان به.
و هذا لا يحتج به من عرف الحقائق و ميز بين الأمور فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج و البراهين.
و أما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال هذه الأمور
فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذى جاء خصمه لأنه لو كان له حجة لأوردها
و لم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا سواء كان صادقًا فى قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذبًا
مع أن موسى عليه السلام كل من عرف حاله و ما يدعو إليه عرف أنه ليس له قصد في العلو فى الأرض
و إنما قصده كقصد إخوانه المرسلين:-
1-هداية الخلق 2-و إرشادهم لما فيه نفعهم. و لكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم:
(وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)تكبرًا و عنادًا لا لبطلان ما جاء به موسى و هارون و لا لاشتباه فيه و لا لغير ذلك
من المعانى سوى الظلم و العدوان و إرادة العلو الذى رموا به موسى و هارون78

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ
عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ
زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ
وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ)معارضًا للحق الذى جاء به موسى و مغالطًا لملئه و قومه:–

(ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ)ماهر بالسحر متقن له.

فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم و طبقاتهم79

(فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ)للمغالبة مع موسى

(ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ)أى: أى شيء أردتم لا أعين لكم شيئًا

و ذلك لأنه جازم بغلبته غير مبال بهم و بما جاءوا به

{قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى65 قَالَ بَلْ أَلْقُوا} [طه]

*فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ تَكُونَ الْبَدَاءة مِنْهُمْ لِيَرَى النَّاسُ مَا صَنَعُوا ثُمَّ يَأْتِي بِالْحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْمَغُ بَاطِلَهُمْ

وَ لِهَذَا لَمَّا {أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: 116] 80

(فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟)حبالهم و عصيهم إذا هى كأنها حيات تسعى

فـ(قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ)أى:هذا السحر الحقيقى العظيم و لكن مع عظمته

(إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ)سيُذْهب ما جئتم به وسيُبطله

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)مَن سعى في أرض الله بما يكرهه و أفسد فيها بمعصيته.

*فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق و أي فساد أعظم من هذا؟!!

*و هكذا كل مفسد عمل عملا و احتال كيدًا أو أتى بمكر فإن عمله سيبطل و يضمحل و إن حصل لعمله روجان فى وقت ما فإن مآله الاضمحلال والمحق.

*و أما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى و هى أعمال و وسائل نافعة مأمور بها فإن الله يصلح أعمالهم و يرقيها و ينميها على الدوام فألقى موسى عصاه فتلقفت جميع ما صنعوا فبطل سحرهم و اضمحل باطلهم81

(وَيُحِقُّ)يثبِّت(ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ)الذى جئتكم به من عنده فيُعليه على باطلكم(بِكَلِمَٰتِهِۦ)و أمره

(وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ)أصحاب المعاصى مِن آل فرعون.

*فألقى السحرة سجدًا حين تبين لهم الحق.

فتوعدهم فرعون بالصلب و تقطيع الأيدى و الأرجل فلم يبالوا بذلك و ثبتوا على إيمانهم.

*و أما فرعون و ملؤه و أتباعهم فلم يؤمن منهم أحد بل استمروا فى طغيانهم يعمهون﴿٨٢﴾و لهذا قال:–

(فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ)شباب من بنى إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت فى قلوبهم الإيمان

(عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ)عن دينهم

(وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ)أى: له القهر و الغلبة فيها فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته.

(وَ)خصوصًا (وَإِنَّهُۥ)كان(لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ)المتجاوزين للحد فى البغى و العدوان.

و الحكمة–و الله أعلم–بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه:–

أن الذرية و الشباب أقبل للحق و أسرع له انقيادًا بخلاف الشيوخ و نحوهم ممن تربى على الكفر فإنهم – بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة– أبعد من الحق من غيرهم83

(وَقَالَ مُوسَىٰ)موصيًا لقومه بالصبر و مذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك فقال:–

(يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ)فقوموا بوظيفة الإيمان.

(فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ)اعتمدوا عليه و الجؤوا إليه و استنصروه.

*فَإِنَّ اللَّهَ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزُّمَر: 36] {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطَّلَاق: 3]

*وَ كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَ التَّوَكُّلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:-فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هُودٍ: 123]

{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الْمُلْك: 29] {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [الْمُزَّمِّل: 9]

*وَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي كُلِّ صَلَوَاتِهِمْ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً:-{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الْفَاتِحَة: 5]

﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾مذعنين له بالطاعة﴿٨٤﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ممتثلين لذلك﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

أى:لا تسلطهم علينا فيفتنونا أو يغلبونا فيفتتنون بذلك و يقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا﴿٨٥﴾

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾خلصنا لنسلم

﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

من شرهم و لنقيم على ديننا على وجه نتمكن به من إقامة شرائعه و إظهاره من غير معارض و لا منازع﴿٨٦﴾

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون و قومه و حرصوا على فتنتهم عن دينهم.

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾أى:مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكنون به من الاستخفاء فيها.

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾

اجعلوها محلا تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة فى الكنائس و البيع العامة

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾فإنها معونة على جميع الأمور

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾بالنصر و التأييد و إظهار دينهم فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا

و حين اشتد الكرب و ضاق الأمر فرجه الله و وسعه﴿٨٧﴾

فلما رأى موسى القسوة و الإعراض من فرعون و ملئه دعا عليهم و أمَّن هارون على دعائه فقال:-

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ﴾

يتزينون بها من أنواع الحلى و الثياب و البيوت المزخرفة و المراكب الفاخرة و الخدام

﴿وَأَمۡوَٰلٗا﴾عظيمة﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ﴾

أى: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال﴿عَن﴾فى﴿سَبِيلِكَۖ﴾فيضلون و يضلون.

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ﴾أتلف﴿عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:- إما بالهلاك و إما بجعلها حجارة غير منتفع بها.

﴿وَٱشۡدُدۡ﴾قَس-اطبع﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾الشديد الموجع.

*قال ذلك غضبًا عليهم:-

1-حيث تجرؤوا على محارم الله 2-و أفسدوا عباد الله 3-و صدوا عن سبيله

4-و لكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

*وَ ه ذِهِ الدَّعْوَةُ كَانَتْ مِنْ مُوسَىﷺ غَضَبًا لِلَّهِ وَ لِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْنَوَ مَلَئِهِ الَّذِينَ تبين له أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَ لَا يَجِيءُ مِنْهُمْ شَيْءٌ كَمَا دَعَا نُوحٌﷺ فَقَالَ: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا 26 إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نُوحٍ]

وَ لِهَذَا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَىﷺ فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الَّتِى أمَّنَ عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُونُ

قَالَ عدد من العلماء:-دَعَا مُوسَى وأمَّنَ هَارُونُ أَيْ: قَدْ أَجَبْنَا كُمَا فِيمَا سَأَلْتُمَا مِنْ تَدْمِيرِ آلِ فِرْعَوْنَ.

*وَ قَدْ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ يَقُولُ:-"إِنَّ تَأْمِينَ الْمَأْمُومِ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ يُنزل مَنْزِلَةِ قِرَاءَتِهَا لِأَنَّ مُوسَى دَعَا وَ هَارُونَ أَمَّنَ".وَ قَالَ تَعَالَى: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}

أَيْ: كَمَا أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِى ٨٨

قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾
۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ
قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾
ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ
وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾
فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ
لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

(قَالَ)الله تعالى(قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا)هذا دليل على أن موسى كان يدعو و هارون يُؤَمِّنُ على دعائه و أن الذى يُؤَمِّنُ يكون شريكا للداعى فى ذلك الدعاء.

(فَٱسۡتَقِيمَا)على دينكما و استمرا على دعوتكما

(وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ)الجهال الضلال المنحرفين عن الصراط المستقيم المتبعين لطرق الجحيم

(ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ)

*فأمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا و أخبره أنهم يتبعون و أرسل فرعون فى المدائن حاشرين يقولون:–

(إِنَّ هَؤُلَاءِ)أى: موسى و قومه:–(لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ)

فجمع جنوده قاصيهم و دانيهم فأتبعهم بجنوده بغيًا و عدوًا أي خروجهم باغين على موسى و قومه و معتدين في الأرض و إذا اشتد البغى و استحكم الذنب فانتظر العقوبة

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَ جُنُودَهُ فَإِنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ هُمْ-فِيمَا قِيلَ-سِتُّمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ سِوَى الذُّرِّيَّةِ وَ قَدْ كَانُوا اسْتَعَارُوا مِنَ الْقِبْطِ حُلِيًّا كَثِيرًا فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ فَاشْتَدَّ حَنَقُ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِمْ فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُودَهُ مِنْ أَقَالِيمِهِ
فَرَكِبَ وَرَاءَهُمْ فِي أُبَّهَةٍ عَظِيمَةٍوَ جُيُوشٍ هَائِلَةٍ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ وَ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ دَوْلَةٌ وَ سُلْطَانٌ فِي سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ فَلَحِقُوهُمْ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}

[الشُّعَرَاءِ: 61]وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَ أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَتَقَاتَلَ الْجَمْعَانِ وَ أَلَحَّ أَصْحَابُ مُوسَى عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ كَيْفَ الْمَخْلَصُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْلُكَ هَاهُنَا {كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الشُّعَرَاءِ: 62]فَعِنْدَمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ{فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء: 63] أى كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ وَ صَارَ اثْنَى عَشَرَ طَرِيقًا لِكُلِّ سِبْطٍ وَاحِدٌ. وَ أَمَرَ اللَّهُ الرِّيحَ فنَشَّفت أَرْضَهُ {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى} [طه: 77]

وَ تَخَرَّقَ الْمَاءُ بَيْنَ الطُّرُقِ كَهَيْئَةِ الشَّبَابِيكِ لِيَرَى كُلُّ قَوْمٍ الْآخَرِينَ لِئَلَّا يَظُنُّوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا.

وَ جَاوَزَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ انْتَهَى فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ إِلَى حَافَّتِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَ تَكَامَلُوا وَ هَمَّ أَوَّلُهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ أَمَرَ اللهُ الْقَدِيرُ البحرَ أَنْ يَرْتَطِمَ عَلَيْهِمْ فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَ جَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَ تَخْفِضُهُمْ وَ تَرَاكَمَتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ

وَ غَشِيَتْهُ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ فَقَالَ وَ هُوَ كَذَلِكَ:-89

(وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا)ظلمًا(وَعَدۡوًاۖ)عدوانًا

و ذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه فضربه فانفلق اثنى عشر طريقًا و سلكه بنو إسرائيل و ساق فرعون و جنوده خلفه داخلين.

فلما استكمل موسى و قومه خارجين من البحر و فرعون و جنوده داخلين فيه أمر الله البحر فالتطم على فرعون و جنوده فأغرقهم و بنو إسرائيل ينظرون.

(حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ)و جزم بهلاكه

(قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ)الله الإله الحق الذى لا إله إلا هو

*فَآمَنَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانُ{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ84 فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[غَافِرٍ]

(وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)المنقادين لدين الله و لما جاء به موسى90

قال الله تعالى–مبينا أن هذا الإيمان فى هذه الحالة غير نافع له–:(ءَآلۡـَٰٔنَ)تؤمن و تقر برسول الله

(وَقَدۡ عَصَيۡتَ)الله(قَبۡلُ)بارزت بالمعاصى و الكفر و التكذيب

(وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)

فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة و الذى ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

*فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ} [الْقَصَصِ: 41]

*أحمد 3154 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: رَفَعَهُ أَحَدُهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ:-

إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَدُسُّ فِي فِي فِرْعَوْنَ الطِّينَ مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ "91

(فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ)

قال المفسرون:إن بنى إسرائيل لما فى قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون كأنهم لم يصدقوا بإغراقه و شكوا في ذلك فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه ليكون لهم عبرة و آية.

(وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ)

فلذلك تمر عليهم و تتكرر فلا ينتفعون بها لعدم إقبالهم عليها.

*و أما من له عقل و قلب حاضر فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

*البخارى4680-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺالْمَدِينَةَ وَ الْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ فَقَالُوا:-
هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺلِأَصْحَابِهِ:-«أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا»﴿٩٢﴾

(وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ)أنزلهم الله و أسكنهم فى مساكن آل فرعون و أورثهم أرضهم و ديارهم.

*هُوَ بِلَادُ مِصْرَ وَ الشَّامِ مِمَّا يَلِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَ نَوَاحِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ اسْتَقَرَّتْ يَدُ الدَّوْلَةِ الْمُوسَوِيَّةِ عَلَى بِلَادِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأَعْرَاف: 137]وَ قَالَ{فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ57وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ58كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الشعراء]

(وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ)من المطاعم والمشارب و غيرهما

(فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ)الموجب لاجتماعهم و ائتلافهم و لكن بغى بعضهم على بعض و صار لكثير منهم أهوية و أغراض تخالف الحق فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

*أبي داود 4596عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَ سَبْعِينَ فِرْقَةً وَ تَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَ سَبْعِينَ فِرْقَةً وَ تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَ سَبْعِينَ فِرْقَةً»

(إِنَّ رَبَّكَ)أيها الرسول(يَقۡضِي)يفصل(بَيۡنَهُمۡ)

(يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ)فيه من أمرك فيدخل المكذبين النار و المؤمنين الجنة.

*بحكمة العدل الناشئ عن علمه التام و قدرته الشاملة و هذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

و هو:–أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية سعى فى التحريش بينهم و إلقاء العداوة و البغضاء فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك

*ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض و عداوة بعضهم لبعض ما هو قرة عين اللعين.

*و إلا فإذا كان ربهم واحدًا و رسولهم واحدًا و دينهم واحدًا و مصالحهم العامة متفقة

فلأى شيء يختلفون اختلافًا:–

1-يفرق شملهم 2-و يشتت أمرهم 3-و يحل رابطتهم و نظامهم

4-فيفوت من مصالحهم الدينية و الدنيوية ما يفوت 5-و يموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟

فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين يجمع شملهم و يرأب صدعهم و يرد قاصيهم على دانيهم يا ذا الجلال و الإكرام(٩٣)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-(فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ)هل هو صحيح أم غير صحيح؟.

(فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ)

أى:اسأل أهل الكتب المنصفين و العلماء الراسخين فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به و موافقته لما معهم

فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود و النصارى

بل ربما كان أكثرهم و معظمهم كذبوا رسول الله و عاندوه و ردوا عليه دعوته.

و الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم و جعل شهادتهم حجة لما جاء به و برهانًا على صدقه فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا من عدة أوجه:-

1-أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد و نحوهم فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

و أما من عداهم فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم لأن الشهادة مبنية على العدالة و الصدق

و قد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين ك «عبد الله بن سلام»و أصحابه و كثير ممن أسلم فى وقت النبى ﷺ و خلفائه و من بعده و « كعب الأحبار » و غيرهما.

2-أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺمبنية على كتابهم التوراة الذى ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودًا فى التوراة ما يوافق القرآن و يصدقه و يشهد له بالصحة فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك لم يقدح بما جاء به الرسول.

3-أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه و أظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

و من المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله لأبدوه و أظهروه و بينوه فلما لم يكن شيء من ذلك كان عدم رد المعادى

و إقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن و صدقه.

4-أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول بل أكثرهم استجاب لها و انقاد طوعًا و اختيارًا

فإن الرسول بعث و أكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام و مصر و العراق و ما جاورها من البلدان

التى هى مقر دين أهل الكتاب و لم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق

و من تبعهم من العوام الجهلة و من تدين بدينهم اسمًا لا معنى كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل

و إنما انتسبوا للدين المسيحى ترويجًا لملكهم و تمويهًا لباطلهم كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

(لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ)الذى لا شك فيه بوجه من الوجوه و لهذا قال:-

(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ)كقوله تعالى: (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) ﴿٩٤﴾

و حاصل هذا أن الله نهى عن شيئين:-

1-الشك فى هذا القرآن و الامتراء فيه.

2-و أشد من ذلك التكذيب به

و هو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه و رتب على هذا الخسار و هو عدم الربح أصلا و ذلك

بفوات الثواب في الدنيا و الآخرة و حصول العقاب في الدنيا و الآخرة و النهى عن الشيء أمر بضده

فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن و طمأنينة القلب إليه و الإقبال عليه علمًا و عملا.

فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجل المطالب

و أفضل الرغائب و أتم المناقب و انتفى عنهم الخسار﴿٩٥﴾

(إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ)

إنهم من الضالين الغاوين أهل النار لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله و قضاه

فـــــ(لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ)فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا و غيا إلى غيهم.

و ما ظلمهم الله و لكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم و أسماعهم و أبصارهم

فلا يؤمنوا(حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ)الذى وعدوا به.

فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال و أن ما جاءتهم به الرسل هو الحق.

و لكن في وقت لا يجدى عليهم إيمانهم شيئًا فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم و لا هم يستعتبون

و أما الآيات فإنها تنفع من له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد﴿٩٧﴾

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا
أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾
وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾
وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ)من قرى المكذبين

*يقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ كما قال تَعَالَى:-{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس: 30]{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذَّارِيَاتِ:52]
{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}[الزُّخْرُفِ:23]

*البخارى5705 عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَ النَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ وَ النَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَ قَوْمُهُ قِيلَ:-انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَ هَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ:-
هَذِهِ أُمَّتُكَ وَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ "

(ءَامَنَتْ)حين رأت العذاب

(فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ)أى:لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبًا

لما قال:(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

فقيل له (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

و كما قال تعالى {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ84فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا

سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} [غافر] و قال{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ99لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا} [المؤمنون]

و الحكمة فى هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطرارى ليس بإيمان حقيقة و لو صرف عنه العذاب و الأمر الذى اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران

(إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟)بعدما رأوا العذاب

فإنهم لمَّا أيقنوا أن العذاب نازل بهم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا

فلمَّا تبيَّن منهم الصدق فى توبتهم :-

(كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)بعد أن اقترب منهم

(وَمَتَّعْنَٰهُمْ)تركهم فى الدنيا يستمتعون(إِلَىٰ حِينٍ)وقت إنهاء آجالهم.

فهم مستثنون من العموم السابق و لا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب و الشهادة لم تصل إلينا و لم تدركها أفهامنا قال الله تعالى(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إلى قوله وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

و لعل الحكمة فى ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه

و أما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلا و ثبتوا عليه و الله أعلم

---

*وَ الْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ تُوجَدْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرَى إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ وَ هُمْ [أَهْلُ نِينَوى]وَ مَا كَانَ إِيمَانُهُمْ إِلَّا خَوْفًا مِنْ وُصُولِ الْعَذَابِ الَّذِى أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ بَعْدَ مَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ وَ خَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَعِنْدَهَا جَأَرُوا إِلَى اللَّهِ وَ اسْتَغَاثُوا بِهِ وَ تَضَرَّعُوا لَدَيْهِ.
وَ اسْتَكَانُوا وَ أَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَ دَوَابَّهُمْ وَ مَوَاشِيَهُمْ وَ سَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِى أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ.فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَ كَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَ أُخِّرُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-(وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

بأن يلهمهم الإيمان و يوزع قلوبهم للتقوى فقدرته صالحة لذلك و لكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين و بعضهم كافرين.

(أَفَأَنتَ تُكْرِهُ)تلزم

(ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ)لا تقدر على ذلك و ليس فى إمكانك و لا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.

*لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَ لَا إِلَيْكَ بَلْ إِلَى اللَّهِ {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}

[فَاطِرٍ: 8]{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [الْبَقَرَةِ: 272]{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشُّعَرَاءِ: 3]

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [الْقَصَص:56] {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرَّعْد: 40] {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ21لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الْغَاشِيَة]﴿٩٩﴾

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ)بإرادته و مشيئته و إذنه القدري الشرعي

فمن كان من الخلق قابلا لذلك يزكو عنده الإيمان و فقه و هداه.

(وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ)أي:الشر و الضلال

(عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)عن الله أوامره و نواهيه و لا يلقوا بالا لنصائحه و مواعظه﴿١٠٠﴾

(قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)

يدعو تعالى عباده إلى النظر لما فى السماوات و الأرض و المراد بذلك: نظر الفكر و الاعتبار و التأمل

لما فيها و ما تحتوى عليه و الاستبصار فإن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون و عبرًا لقوم يوقنون

تدل على أن الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال و الإكرام و الأسماء و الصفات العظام.

(وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ)فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم و عناده‍م.

* كما قال:{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ96 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يُونُس]﴿١٠١﴾

(فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ)فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها

(إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ)مضوا(مِن قَبۡلِهِمۡۚ)

من الهلاك و العقاب فإنهم صنعوا كصنيعهم و سنة الله جارية فى الأولين و الآخرين.

(قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ)

فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة و النجاة فى الدنيا و الآخرة و ليست إلا للرسل و أتباعهم﴿١٠٢﴾

و لهذا قال:(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ)من مكاره الدنيا و الآخرة و شدائدهما.

(كَذَٰلِكَ حَقًّا)أوجبناه (عَلَيۡنَا)على أنفسنا

*حَقًّا أَوْجَبَهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: كَقَوْلِهِ{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأَنْعَام: 12]

كَمَا جَاءَ فِي البخارى 3194 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«لَمَّا قَضَى(خلقه وأحكمه وأمضاه وفرغ منه) اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ(أمر القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ)

فَهُوَ عِنْدَهُ(أي الكتاب)فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»

(نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)ننجِّيك-أيها الرسول-و من آمن بك تفضلا منَّا و رحمة.

و هذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا

فإنه—بحسب ما مع العبد من الإيمان—تحصل له النجاة من المكاره﴿١٠٣﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺسيد المرسلين و إمام المتقين و خير الموقنين:-

(قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي)

أي: في ريب و اشتباه فإني لست في شك منه بل لدي العلم اليقيني أنه الحق و أن ما تدعون من دون الله باطل ولي على ذلك الأدلة الواضحة و البراهين الساطعة.

و لهذا قال:(فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)من الأنداد و الأصنام و غيرها لأنها:-

1-لا تخلق و لا ترزق 2-و لا تدبر شيئًا من الأمور و إنما هى مخلوقة مسخرة ليس فيها ما يقتضى عبادتها.

(وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ)

أي: هو الله الذي خلقكم و هو الذى يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم فهو الذى يستحق أن يعبد و يصلى له و يخضع و يسجد.

(وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)المصدِّقين به العاملين بشرعه بأن تخلص فى أعمالك الظاهرة و الباطنة لله١٠٤

(وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا)مقبلا على الله معرضًا عما سواه

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ)لا فى حالهم ولا تكن معهم١٠٥

(وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ)

و هذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع و لا يضر و إنما النافع الضار هو الله تعالى.

(فَإِن فَعَلۡتَ)بأن دعوت من دون الله ما لا ينفعك و لا يضرك

(فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)أى:الضارين أنفسهم بإهلاكها و هذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟١٠٦

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ
يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ
فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

11-سورة هود-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾
وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ
وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ
إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

(وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ)هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة فإنه النافع الضار المعطى المانع الذى إذا مس بضر كفقر و مرض و نحوها

(فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ)لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله و لو اجتمعوا على أن يضروا أحدا لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يرده الله و لهذا قال:-

(وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ)لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله و إحسانه كما قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلامُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

◄ ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

حينما بدأتُ في حفظ كتاب الله تعالى قبل عشرين عامًا؛ كنتُ أقف أمام بعض الآيات التي تُؤثر في قلبي جدًا، وأكررها عشرات المرات، ثم أكتبُها على ورقة وأضعها أمامي متأملا كلماتها ومعانيها، فكنتُ أشعر أن هذه الآيات تُحدث تأثيرًا كبيرًا في قناعاتي وعقيدتي ومبادئي.

ومن تلك الآيات العظيمة التي كتبتُها وعلّقتُها على جدار غرفتي قوله تعالى:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾

يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

لقد عالجتْ هذه الآيةُ عندي أكثر من ٩٠٪ من الحزن والكآبة والقلق والخوف والتردد!!! ولكن كيف ذلك؟

لقد كنت أتعرض لإحباطات كثيرة نتيجة فشلي في عمل ما، أو خطئي في تصرف ما، أو تسرُّعي في كلمة أقولها ثم أكتشف أنني مخطئ، وعندما قرأتُ هذه الآية علمتُ أن أي ضرٍّ يصيبني إنما هو من الله تعالى، وهو أمر مُقَدَّرٌ قبل أن أُخلق، وهذا الضُّرُّ لا يمكن لأحد أن يُذهبه ويكشفه إلا الله تعالى، فكنتُ أقول: لماذا أنا حزينٌ وقلقٌ ومحبطٌ؟ إذا كان الله تعالى وهو أرحم الراحمين قد مَسَّني بهذا الضرَّ؛ فهو من سيكشف هذا الضر، فهل هناك أجَلُّ من هذا؟

لقد غيَّرت هذه القناعة الجديدة أشياء كثيرة في حياتي، فتحول الوقت الذي كنتُ أمضيه في التفكير فيما سبق من أخطاء ومشاكل؛ تحول إلى وقت مثمر أقرأ فيه القرآن أو أتعلم فيه أمرًا جديدًا من أمور العلم!

انظروا معي إلى هذه الكلمات: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ ﴾؛ كيف غيَّرت حياة إنسان بأكملها، وكيف غيرت الوقت من وقت ضائع إلى وقت مثمر وفعّال!

وماذا عن الجملة الثانية من الآية: ﴿ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ ﴾ يا لها من كلمات مليئة بالرحمة والتفاؤل والحيوية، فقد كنتُ في كثير من الأوقات أعاني من قلق وخوف من أشياء سوف تحدث، أو أتخيل أنها ستحدث، وعندما قرأتُ

(يُصِيبُ بِهِۦ) يختص برحمته(مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ)و الله ذو الفضل العظيم

(وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ)لجميع الزلات الذى يوفق عبده لأسباب مغفرته ثم إذا فعلها العبد غفر الله ذنوبه كبارها و صغارها.

(ٱلرَّحِيمُ)الذى وسعت رحمته كل شيء و وصل جوده إلى جميع الموجودات بحيث لا تستغنى عن إحسانه طرفة عين فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو:-

المنفرد بالنعم و كشف النقم و إعطاء الحسنات و كشف السيئات و الكربات

و أن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده جزم بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه هو الباطل.

و لهذا-لما بين الدليل الواضح قال بعده:-أى:-(قُلۡ)يا أيها الرسول لما تبين البرهان

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ)

أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه و هو واصل إليكم من ربكم الذى من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذى فيه تبيان لكل شيء

و فيه من أنواع الأحكام و المطالب الإلهية و الأخلاق المرضية ما فيه أعظم تربية لكم و إحسان منه إليكم فقد تبين الرشد من الغي و لم يبق لأحد شبهة.

(فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ)بهدى الله بأن علم الحق و تفهمه و آثره على غيره

(فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ)و الله تعالى غنى عن عباده و إنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

(وَمَن ضَلَّ)عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به

(فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ)و لا يضر الله شيئًا فلا يضر إلا نفسه.

(وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ)

فأحفظ أعمالكم و أحاسبكم عليها و ما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين و إنما أنا لكم نذير مبين﴿١٠٩﴾

(وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ)تَمَسَّكَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ أَوْحَاهُ

(وَٱصۡبِرۡ)عَلَى مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ مِنَ النَّاسِ

و(يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ)بينك و بين من كذبك

(وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ)الْفَاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وَ حِكْمَتِهِ.

*فإن حكمه مشتمل على العدل التام و القسط الذي يحمد عليه.

و قد امتثل ﷺأمر ربه و ثبت على الصراط المستقيم حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان و نصره على أعدائه بالسيف و السنان بعد ما نصره الله عليهم بالحجة و البرهان فلله الحمد و الثناء الحسن كما ينبغي لجلاله و عظمته و كماله و سعة إحسانه﴿١٠٨﴾

11-تفسير سورة هود عليه السلام-و هى مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

*الترمذى3297 - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺقَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ قَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَ الْوَاقِعَةُ وَ الْمُرْسَلَاتُ وَ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»:

يقول تعالى(الٓرۚ):-هذا(كِتَٰبٌ)عظيم و نزل كريم

(أُحۡكِمَتۡ)أُتقِنت و أُحْسِنت(ءَايَٰتُهُۥ) من الخلل و الباطل

فهى صادقة أخبارها عادلة أوامرها و نواهيها فصيحة ألفاظه بهية معانيه.

(ثُمَّ فُصِّلَتۡ)بُيِّنت و ميزت بيانا فى أعلى أنواع البيان بالأمر و النهى و بيان الحلال و الحرام من عند الله

(مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ)يضع الأشياء مواضعها و ينزلها منازلها لا يأمر و لا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته

(خَبِيرٍ)مطلع على الظواهر و البواطن.

فإذا كان إحكامه و تفصيله من عند الله الحكيم الخبير فلا تسأل بعد هذا عن عظمته و جلالته و اشتماله على كمال الحكمة و سعة الرحمة ﴿١﴾

*و إنما أنزل الله كتابه لــ(أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ)لأجل إخلاص الدين كله لله و أن لا يشرك به أحد من خلقه.

(إِنَّنِي لَكُم)أيها الناس(مِّنْهُ)من الله ربكم(نَذِيرٌ)لمن تجرأ على المعاصى بعقاب الدنيا والآخرة

(وَبَشِيرٌ)للمطيعين لله بثواب الدنيا و الآخرة.

*البخارى 4770-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-لَمَّا نَزَلَتْ:-{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214]

صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺعَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي:-«يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ»-لِبُطُونِ قُرَيْشٍ-حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا(من يستطلع له الخبر)لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَ قُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ(أخبرونى)لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا(عليها فرسان يركبونها)بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ(تهجم وتوقع بكم)عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ(قدام)عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟فَنَزَلَتْ:-

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: 2] 2

(وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ)عن ما صدر منكم من الذنوب

(ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ)فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة و الرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه و يرضاه.

*ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار و التوبة فقال:–

(يُمَتِّعْكُم)يعطيكم من رزقه(مَّتَٰعًا حَسَنًا)تتمتعون به و تنتفعون فى الدنيا

(إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى)وقت وفاتكم(وَيُؤْتِ)يعطى منكم

(كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ)أهل الإحسان و البر من فضله و بره ما هو جزاء لإحسانهم من حصول ما يحبون و دفع ما يكرهون فى الدار الآخرة

(وَإِن تَوَلَّوْاْ)عن ما دعوتكم إليه بل أعرضتم عنه و ربما كذبتم به

(فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

هو يوم القيامة الذى يجمع الله فيه الأولين و الآخرين فيجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

(إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ)دليل على إحياء الله الموتى

(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

و من جملة الأشياء إحياء الموتى و قد أخبر بذلك و هو أصدق القائلين فيجب وقوع ذلك عقلا و نقلا 4

*يخبر تعالى عن جهل المشركين و شدة ضلالهم (أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ)يميلون(صُدُورَهُمۡ)

(لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ)من الله فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم و بصره لهيئاتهم.

قال تعالى–مبينا خطأهم فى هذا الظن–:–

(أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ)أى:يتغطون بها يعلمهم فى تلك الحال التى هى من أخفى الأشياء.

بل(يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ)من الأقوال و الأفعال

(وَمَا يُعۡلِنُونَۚ)منها بل ما هو أبلغ من ذلك

(إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)بما فيها من الإرادات و الوساوس و الأفكار التى لم ينطقوا بها سرا و لا جهرا فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه.

و يحتمل أن المعنى فى هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته أنهم – من شدة إعراضهم–

(يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ)

يحدودبون حين يرون الرسول ﷺلئلا يراهم و يسمعهم دعوته و يعظهم بما ينفعهم فهل فوق هذا الإعراض شيء؟

*البخارى 4682 - مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَ: أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَونى صُدُورُهُمْ
قُلْتُ: يَا أَبَا العَبَّاسِ مَا تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ؟ قَالَ:-
«كَانَ الرَّجُلُ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحِي أَوْ يَتَخَلَّى فَيَسْتَحِي»فَنَزَلَتْ: أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ

*ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم و أنهم لا يخفون عليه و سيجازيهم بصنيعهم﴿٥﴾